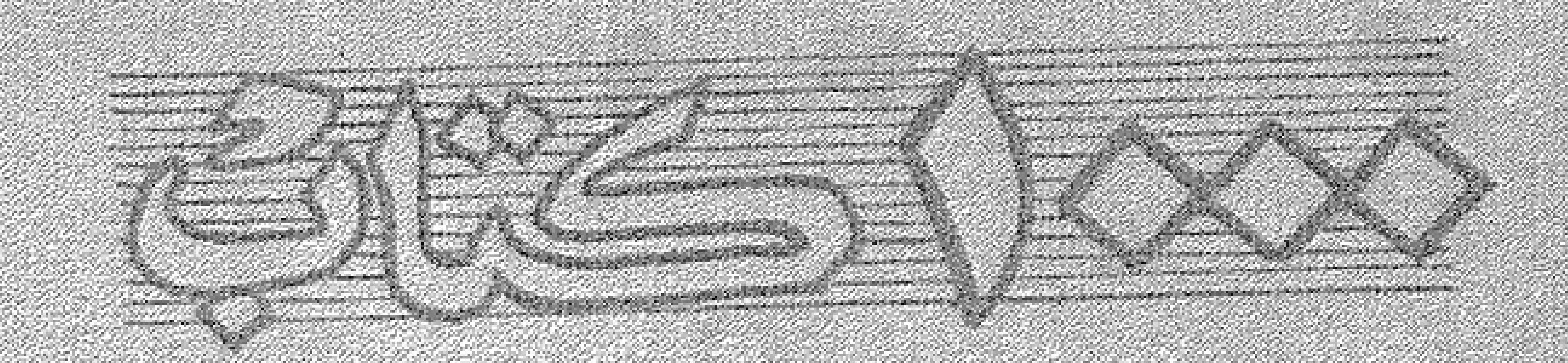


تاريخ الجيوش

ألفه

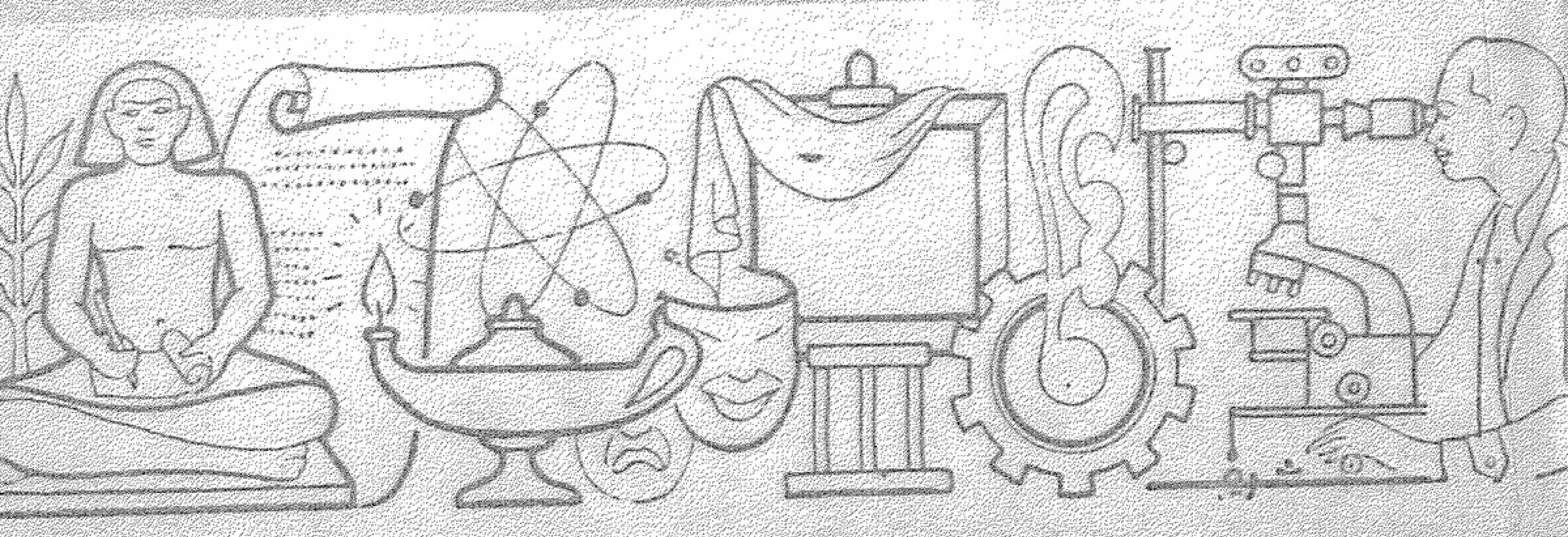
جورج كاستلان

ترجمة

كمال دسوقي

قدم له وزوده بإضافات عن الجيوش العربية والإسلامية

القائمقام الدكتور عبد الرحمن زكي



مقدمة الكتاب

الجيش اصطلاح يقصد به مجموعة الأفراد المسلحين المنظمين الذين يكلفون بأعمال القتال البرية ، ويتألف من الأفراد الذين يتدربون عسكرياً للدفاع عن الدولة . ويطلق هذا الإصطلاح على جميع الذين يحترفون مهنة الجندية ويتخذونها عملا مستديماً وكذلك أفراد قوات الاحتياط الذين يقضون وقتاً فى التدريب .

وقد تطورت فى خلال العصور أشكال وتنظيمات الجيوش تبعاً لتغير النظم الإجتماعية والأحوال السياسية عند الشعوب فضلا عن التقدم العلمى الصناعى ، وتبعاً لكل هـذه الأمور أخذت الجيوش أنماطاً مختلفة كثيرة على مر الأيام .

كانت المشاة فى زمن من الأزمنة عماد الجيوش وفى زمن آخر استبدلوا بالفرسان المسلحين ونرى اليوم المقاتلين يمتطون العربات المدرعة أو الطائرات النفاثة أو يهبطون من أجواء السماء فى عدتهم وسلاحهم . وبينما كانت الجيوش فى بعض العصور تؤلف من الجند المحترفين أو المرتزقة المأجورين إذ نراهم فى عصور أخرى من الهواة المتطوعين أو الثوار المغامرين من المتطرفين الذين يقاتلون فى سبيل تحقيق المثل العليا .

لقد تنوعت نظم الجيوش مع تطور الأحوال الاجتماعية التى سادت الامم ومع تقدم أساليب القتال والتسلح . ففى مصر القديمة كان المحاربون يؤلفون الطبقة الثانية من أفراد الشعب الذين جمعتهم سبع طبقات . وكان عماد الجيش حتى قيام الإمبراطورية جنود المشاة يعاونهم حملة القسى والمقلاع ثم عرفت مصر حوالى ١٨٠٠ ق . م استعمال العربات الحربية وكانت اقتبستها

عن غزاتها الهكسوس . . وعلى مر الزمن أصبح سلاح العربات الحربية فى مصر أعظم ما عرف منها فى العالم القديم .

واستخدمت آشور[1] الجياد على مقياس كبير . وكان العسكريون من الأشراف يؤلفون الطبقة الرفيعة . كذلك استمدت فارس القديمة محاربيها من طبقة النبلاء .

وتمر عجلة الزمن فنرى الإغريق والفرس معاصريهم يفيدون من تجارب مصر وآشور فى مجال تنظيم الجيوش ، ويمكن القول أن مصر وآشور وفارس والإغريق كانت أولى الشعوب التى أسست أنظمة الجيوش كما أنها هى التى أخرجت واجب القتال من نطاقه القبلى وأخضعت جميع الأصحاء القادرين على القتال للنظام المسلح وجعلت منهم العناصر المقاتلة فى الأمة ويرى بعض المؤرخين أن معركة « ماراثون » (٤٠٠ ق . م) تعتبر بداية قيام الجيوش المنظمة .

وفى هذا الكتاب يعرض المؤلف أحوال جيوش المدن الإغريقية التى كان لكل منها جيش قائم . كما أنه يتحدث بإسهاب عن جيوش رومه . تلك التى شابهت جيوش الإغريق فى بداية الموقف .. عمادها المواطن ـ الجندى .

وقد امتاز الجيش فى أيام الجمهورية الرومانية بأشياء كثيرة . فقد كان المواطن ـ الجندى مسئولا عن أسلحته وعتاده وليست الحكومة . وعلى ذلك الأساس أنشئت خمس طبقات من المشاة وكان على رأسهم جميعاً المشاة المدرعون وهم أكثرهم ثروة وجاهاً كذلك كان الفرسان . وكان أفراد الجيش الرومانى يدربون منذ الصغر على الأعمال العسكرية ويلاحظ أن جيش الجمهورية قد تعلم وأفاد كثيراً من تجاربه فى قتال قرطاجنة المرير .

---

(١) استخدمت سومر العربة الحربية حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م وكانت تجرها الحمير بدلا من الجياد .

ومر الجيش الرومانى فى أيام الجمهورية الأخيرة (١٤٦ق . م ، ٢٩ق.م) خلال حروب أهلية كثيرة بعضها ضد البرابرة،وبالتدريج أخذ بمبدأ الجيش المحترف ، وقد تولى إمرته قادة ممتازون مثل يوليوس قيصر وبومبى وغيرهما ممن تدين لهم رومه بأمجادها الشامخة ، وعلى أثرها جاءت الإمبراطورية واكتفى حكامها بسياسة الدفاع والقضاء أولا بأول على الثورات التى كانت تنشب فى الولايات . وعندما بدأت الإمبراطورية فى التفكك تفتت الجيش الرومانى إلى مجموعات وطنية . فيما عدا الجزء الشرقى منها فقد ظل يقاوم الأعداء الجدد إلى أن قضى العثمانيون على إمبراطورية بيزنطية (١٤٥٣) .

وسادت جيوش العصور الوسطى عدة نظم مختلفة . فكان لكل شعب أسلوبه المختار من النظم والتقاليد التى تتفق مع الإقطاع ، ولذلك اختلفت جيوش الفرنج والبيزنطيين والعرب والأنجلوسكسون عن بعضها ولكل منها نظمها الخاصة .

قام العرب بسلسلة من الفتوح الموفقة فى آسيا والشرق الوسيط وشمال إفريقيا وأوربا الغربية وكانت معركة تور (٧٣٢ م) أقصى ماوصلت إليه الفتوح الإسلامية ثم اتخذوا سياسة الدفاع فى البلاد الأسبانية . كل هذا تم بفضل جيوش القبائل العربية والبربرية (بعد دخولها الإسلام) .

ومن الشعوب التى ظهرت على أثر العرب ـ المغول والترك ـ الذين امتازوا بجحافل فرسانهم المخربة التى أوقعت الرعب فى كل مكان وطأته أقدام خيولهم ـ وامتاز عصرهم باستخدام الخيل على مقياس كبير سواء أكان ذلك فى الشرق أو فى الغرب .

وفى خلال النصف الأخير من العصور الوسطى قامت بوظيفة الجيوش جماعات وعصابات استأجرها الملوك والأمراء وقد عرفت هذه بأسماء مختلفة فى سويسرة وأسبانيا والأراضى المنخفضة وإيطاليا (فى عصر النهضة) .

وكان لجوستافوس أدولفوس عاهل السويد ومن بعده كروموِيل أثر بارز على ما أدخلاه من النظم الجديدة فى الجيوش ـ تلك الترتيبات التى تتصل بالقطع العسكرية والقيادة . . كما أننا لا نستطيع أن نتجاهل تلك الحقبة التى مر الجيش خلالها فى فرنسا فى النصف الأخير من القرن السابع عشر . . وما كان أيضاً لفردريك الكبير من نشاط وعبقرية عسكرية ، فتطور التكتيك وسيطر النظام بصرامة إلى جانب ما كان للأسلحة النارية من أثر كبير فى نظم صفوف الجيش .

ولا يخفى ما كان للشعور الوطنى وتطور الوعى الاجتماعى من آثار داوية فى نظم جيوش فرنسا ، تلك الآثار التى انبثق منها تنظيم الأمة للقتال والجهاد ولقد صادف هذا النظام الثورى قبولا عند الفرنسيين لانسجامه الواضح مع الظروف السياسية التى مروا خلالها . فاستفاد نابليون القورسيكى منه وأدخل عليه بعض التعديلات التى تتفق مع سياسة الانطلاق خارج الحدود الفرنسية ... إصلاحات تناولت معنويات الجند ومكافآتهم وتدريبهم على ما استحدثه من التكتيك إلى جانب ما نجم عن تشعب أعمال القيادة . وفى خلال تلك الأعوام الجامحة بأحداثها برزت جيوش مضادة لنابليون . . هى جيوش التحرير التى ناضلته وقاومته . . وكان لتلك طابعها التى اتسمت به . وكذلك قيام الجيوش الأمريكية أثناء الحرب الأهلية وجيوش ألمـــانيا وروسيا والوحدة الإيطالية

° ° °

ويمكن القول أن النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان عصر الجيوش المحترفة ويتمثل هذا الطراز فى الجيوش الإنجليزية والأمريكية والألمانية واليابانية . . وتمتاز بطرزها الخاصة من حيث أساليب تجنيدها وشكلها العام أو حجامها وتنظيمها وقيام هيئات أركان الحرب بها . . ولحق بهذا كله تطور شامل فى التدريب والتكتيك والتسليح الآلى .

كانت تلك هى حالة الجيوش الأوربية عامة التى نقابلها فى جبهات الحرب العالمية الأولى ، وأهم مانلاحظه زيادة أثر النيران للأسلحة التى زودت بها الجيوش ولاسيما نيران المدفعية بفضل تحسن صناعة المفرقعات . . ثم ستخدامها لسلاحين هامين هما الدبابة والغاز السام(١) وصار واضحاً منذ ذلك النضال العالمى أن الحرب قد أصبحت تؤثر على كل مواطن بطريق مباشر أو غير مباشر . وبدأت الحكومات تدرس مشكلة القتال أو الدفاع وتوجه إليها عنايتها الكبرى بشكل لم يسبق مثله فى أية حقبة من حقبات التاريخ ،واندمجت الصناعة فى نطاق المجهود الحربى . وفى تلك الحرب العالمية برزت أيضاً أهمية معنويات الشعوب والعمل على رفعها إلى مستوى عال بجميع الوسائل السيكلوجية .

وفيما بين الحربين العالميتين تطور مبدأ اشتراك الأسلحة الثلاثة فى البر والبحر والجو . . . حتى إذا نشبت الحرب العالمية الثانية كانت قوات كل أمة تعد بالملايين ويقدم لها العون ملايين آخرون خلف جبهات القتال . ورأينا شعوباً متحالفة فى صف واحد تحارب شعوباً أخرى فى صف مقابل وانتشرت المعارك فى جميع القارات براً وبحراً وجواً ، وأدخلت عناصر جديدة فى فن التكتيك نتيجة لتطور التسلح . . كانت الحرب نضالا جباراً بين إمكانيات المقاتلين شملت كل مالدى الأمم من جامعات ومصانع ومناجم وحقول وقوى كهربائية وطاقة طبيعية وعلمية ، وقد ساعدت العلوم رجل الحرب بما أمدته من الاختراعات الجديدة كالألغام البرية والبحرية وأجهزة الكشف عنها ثم الصاروخيات والقنابل الموجهة وأخيراً الدبابة فى شتى الأنواع والأثقال والراديو والتليفزيون . الخ

ارتقت فى تلك الحرب العالمية الثانية أساليب قيادة الجيوش من

---

(١) كان أول استخدام الغاز السام فى معركة إيبر ypres فى ربيع عام ١٩١٥ .

التشكيلات الكبرى إلى الوحدات الصغرى وصار لزاماً أن يعنى كل العناية بتدريب وتعليم الجندى العمل بنفسه فى الميدان وبوحى تفكيره إذا وزعت وحدته أو قتل رئيسه. أما أثر القنبلة الذرية والهيدروجينية وكذلك الأسلحة الذرية على الجيوش ونظمها وتدريبها فى حرب المستقبل فعلمه عند الله. ولكن مما لا شك فيه أن قيادات الجيوش قد عملت لذلك حسابها حتى لا تفاجأ وسوف تظل القوات المسلحة (ولا سيما البرية) العامل الرئيسى فى القتال ومن المحال أن يعيش عالم مادى التفكير وأنانى الطبيعة بدونها فى ذلك العالم.

* * *

وعلى أية حال فبالرغم من تطور الجيوش وما أدخلته عليها آلات التدمير الحديثة وتقدم فن الطيران وتطور وعى الشعوب فإن شيئاً واحداً لم يتغير على مر الزمن .. ذلك هو الرجل الذى يتحمل أعباء القتال .. هو القاسم المشترك فى نضال الشعوب فالرجال الذين تؤلف منهم صفوف المقاتلين هم الذين يصنعون جيشاً قادراً أو جيشاً هزيلا ... لننظر إلى صفحات التاريخ لنفيد منها .. إن جيش المسلمين لم يبلغ ما وصل إليه من أمجاد بقوة السلاح بل لأنه كان جيشاً من الشجعان المقاتلين المسلحين بالعزيمة والإرادة والتضحية والإيمان .

إنه من الأفراد تتكون الشعوب ومن الشعوب الصالحة نجد الجيوش الممتازة على غيرها . وعندما تضمحل الأمة يضعف الجيش ويفشل فى واجبه ولا يسمع صدى لوقع أقدامه . إن حيوية الأمة وقوة إبداع أفرادها ونشاط إنتاجها مجتمعة هى التى تخلق الجيش الظافر .. والفضل فى الجيش الظافر إنما يعود إلى نوع رجاله .. فقط .

عبد الرحمن زكى

الفصل الأول

الجيش فى القديم

إن أول ما بقى لنا من آثار وجود الإنسان الأسلحة: كل ما تقذفه الأيدى فالمعاول ، وأطراف السهام ، وآلات الصيد من غير شك ، تلك الآلات التى غالباً ما كان هدفها أفراد القبيلة المعادية . فمنذ فجر ما قبل التاريخ يسيطر على مغامرة الإنسان القتال والحرب ، وهى مظهر من مظاهر صراعه لإيجاد التوازن بين نفسه والبيئة الحيوية المحيطة به : الصراع من أجل الاستيلاء على القوت ، وعلى مواقع الانشاء الملائمة ، وحيازة الأرض التى يحيا عليها . فنى المجتمع البدائى كانت الأسرة فالعشيرة والقبيلة كل منها وحدة حربية . كما كانت علاقات المجموعة منها بالأخرى تقوم على القوة ، كان كل رجل صالح للجندية جنديا ، وكان المجتمع كله مختلطا بالجيش .

إلا أن الحرب تفرض تفاوت الدرجات ، درجات الغالب والمغلوب ، القوى والضعيف . ومن ثم ينشأ النظام ، وتتعادل القوى ، ويتمثل ذلك فى مختلف المجموعات وكثرة الرتب وأنواع السيطرة . وتضيق بهـــذا أطر العشيرة ، وتبدو القبيلة غير كافية . فنرى قبائل سومر[1] ، والأسرات المصرية والممالك اليونانية (التى تحدثت عنها الإلياذة) ، واتحاد الأقاليم السبعة لروما الأولى . . . وحدات جديدة خلقتها الحرب ، ومرحلة أولى فى التطور من نظام العشيرة إلى الامبراطوريات الكبيرة .

---

(١) السومريون أمة استوطنت بلاد ما بين النهرين من قديم الزمان وأنشأت حضارة عظيمة فى الجهة الجنوبية من نهر الفرات وهناك رأى يقول بأن هذه الحضارة يرجع تاريخها الى ماقبل الحضارة المصرية القديمة . (المراجم)

ومنذ هذه المرحلة الأولى يقوم التخصص ، فينزع المجتمع السلاح لكى ينشأ الجيش . ويحاول الرئيس أن يضمن تركيز السلطة فى يده ، وينجح فى ذلك بنسب متفاوتة . فإذا أضطر إلى أن يتقاسم معه السلطة رؤساء العشائر القديمة فى اليونان (الذين يسميهم هوميروس الجينوس Guenos) أوالشعب نفسه فى روما الملكية ، فهذا هو نظام المدينة la Cité . فيه تظل العشائر مسلحة ، وفى حالة الحرب يكون المواطنون جميعاً جنوداً — فهذا هو الجيش الوطنى .

أما فى الحالة المقابلة لهذه : فالرئيس هو الذى يفرض بقوته سلطانه وله جيشه الخاص به ، والذى يتكون غالباً من أجانب مأجورين ، فيكون الجيش أداة قوته . وهذا جيش الامبراطوريات المأجور أو المرتزق .

١ — دراسة خارجية : أنماط الجيش :

عرف العصر القديم نوعين من الجيش فى أمكنة وأزمنة جد مختلفة :

فأولا : جيش المدينة L'Armée de la Cité

يعرض عالم الإغريق فى مدنه نماذج عديدة للجيوش الوطنية . فاليونان القديمة ـ كما حدثتنا الإلياذة ـ مجموعة ممالك صغيرة منضمة بعضها إلى بعض برباط إتحادى غامض بعض الشىء . وعلى رأسها يوجد الملك الذى هو الرئيس الدينى والحربى . إلا أنه فى هذه التجمعات ، لازالت الجماعات محتفظة بكامل أهميتها ، ومازال رؤساؤها أعوان الملك ومستشاريه .

كما أن الجيش لايعدو أنضمام رجال هذه الجماعات المتجاورة فى صورة وحدات الأسر والقبائل . فعلى كل رب أسرة أن يقدم الرجال الذين يرى

أنهم صالحون أو يبدون له صالحين . وهكذا كان المجتمع نصفه غير مسلح . لأن كل الرجال ليسوا فى حالة تعبئة . وهذا هو السبب الذى من أجله سوف تهزم اليونان القديمة أمام الدوريين les Doriens ، والحق أن شعوب اليونان فى الشمال قد أبقوا على سلامة تنظيمهم العائلى ، فكان كل الرجال جنوداً كما وهبهم الرمى فوق ذلك تفوقا فنيا كبيراً .

وقد احتفظت اسبرطه فى العصر القديم بهذا الطابع الدورى الأصيل فيها كما كانت النموذج الكامل « للمدينة المعسكر » Cité – Caserne . لذا عرف أفلاطون الشعب الإسبرطى بقوله : « إنه جيش ، إنه حامية مدينة ليست إلا معسكراً . أن الأقلية فيها مغمورة وسط الشعوب الوطنية . والدوريون من أهل اسبرطه — لكى يبقوا على قوتهم — قد احتفظوا دائماً بتنظيمهم العسكرى القوى الذى ضمن لهم النصر فى القرن العاشر . والإسبرطى طول حياته جندى خاضع لأدق نظام . ولما كان تحت الطلب من سن العشرين إلى الستين ، فإنه يقيم بالمعسكر حتى الثلاثين ، ويأكل فى (الميز) حتى الستين .

« وعندما يولد ، يخضع للجنة فحص حقيقية هى التى تقرر مصيره ، ولها وحدها الحق فى أن تحيى من سوف يستطيع فيما بعد أن يكون جنديا ، والتربية فى أسبرطة عسكرية صارمة ، وهى تروض على المعاناة ، وتحمل البرد، والجوع . والتربية البدنية متقدمة جداً ، إلا أن الثقافة العقلية قاصرة على طائفة من أشعار الحروب . وفى وقت السلم يظل المواطن مجنداً . وعليه أن يسكن المدينة حتى يستطيع أن يستجيب لأول دقة للطبول . وهو يلبس دائما الزى الرسمى ذى السترة الأرجوانية التى تخفى بقع الدم . وفى وجبة المساء التى يتناولها جماعيا ، يتواجد على المائدة مع الخمسة عشر زميلا الذين سيقاسمهم الخيمة وقت الحرب .

فى اسبرطة إذن ، المعادلة : جندى = مواطن ، صحيحة . وللقيام على

بقاء هذه الآلاف المؤلفة من العسكريين ، يعمل فى دأب جمهور من الأجانب غير الوطنيين ، يتكون من الشعوب المغلوبة تحول أهلها إلى رقيق .

وعندما يشرق فجر التاريخ على الغالبية من الشعوب الأخرى ، إذا بنا نجد أنفسنا إزاء تطور أكثر تقدما . فإن أثينا فى عهد بيركليس تحتفظ بالخدمة العسكرية الإجبارية . ويقسم المواطن حين يبلغ الرشد يمين الولاء للوطن : « إننى لن ألحق العار بهذه الأسلحة المقدسة ، ولن أتخلى عن زميلى فى المعركة وسأقاتل دفاعاً عن آلهتى وبلادى ، وحيدا أو مع الآخرين ، ولن أخلف الوطن وبه نقص ، بل أموت عنه أكثر قوة وأشد بأساً » .

إنه تحت الطلب من الثانية عشرة إلى الستين . وهو يؤدى بوصفه مجنداً Néotatos سنتين من الخدمة العاملة ثم يقيد بين المحاربين المقيدين Hoptites du Catalogue من سن العشرين إلى التاسعة والأربعين ، وأخيراً يصبح من المحاربين القدماء Presbytatos من الخمسين إلى الستين . ومن النادر فى حالة الحرب أن تكون التعبئة عامة . فقد كان يكفى دائماً تقريبا استدعاء عدد بعينه من طبقات المحاربين المقيدين بالإضافة إلى المجندين . أما أثناء السلم فالمجندون وحدهم هم الذين يؤدون الخدمة العسكرية (العاملة) وهيئة المقيدين هى التى تكون جيش تحت الطلب . فالمدينة تعتمد دائماً إذن على أبنائها فى الدفاع عنها أما المجتمع فقد أصبح مدنيا . ولم يعد الجيش ليختلط بجماعة المواطنين إلا عندما يكون الوطن فى خطر . فى مقابل « المدينة المعسكر » كان ثمة المدينة المشتغلة بالفنون والآداب Cité Mére des Arts et Lettres التى يحميها جيشها الوطنى .

هذا النوع من الجيوش المكون من المدنيين سوف يوجد أيضاً بدرجات مختلفة فى أقدم ممالك ما بين النهرين ، وشعوب الغال المستقلة ، وفى روما الملكية ؛ حيث رؤساء القبائل Patres هم الرؤساء العسكريون

يقودون رجالهم إلى الحرب . فمهما تكن درجة مدنية المجتمع وانفصاله عن الهيئة العسكرية ، فإن الطابع الأساسى لهذه المجتمعات القديمة إنما يتمثل فى المعادلة : الجيش = المدينة (أو المملكة) فى حالة تسلح .

ثانيا : جيش الامبراطورية :

إن نموذج جيش الامبراطوريات هو الجيش المرتزق . إلا أنه بين النوعين الرئيسيين من الجيوش يقدم العالم القديم أنواعاً أخرى هى بمثابة مرحلة انتقالية تسمح بالوقوف على طريقة الانتقال من أحدهما إلى الآخر .

يجب أن نذكر أولا أن المدن اليونانية القديمة قد عرفت الجنود المرتزقة منذ حرب البلوبونيز ، استخدمت أثينا رماة السهام من أهل كريت ، ومصوبى (المقلاع) من أهل رودس أو أكارنينا ، وحملة الدروع من أهل تراقيه . فلما أصبحت لها امبراطورية أهابت بحلفائها ، وبدلا من المساهمة بالأسلحة التى كانوا يفضلون استبدالها بالضريبة (الجزية) نشأت عندهم فكرة جنود تدفع هى رواتبهم . وأخيرا فإن أثينا قد لجأت ـ ولكن فى أسطولها فقط ـ إلى استخدام العبيد .

واسبرطة ذاتها عندما كانت فريسة للداء المميت ، ونعنى به نقص الرجال وانقراضهم ، أهابت بالعبيد والجيران منذ القرن الخامس . وفى بلاتيا Platées (٤٧٩ ق . م) كان ثمة واحد منهم لكل مواطن . وفى لاكونيا (٣٧١) اثنان أو ثلاثة . ليس هذا فحسب ، بل إنه عندما كانت تحدث أزمة فى عدد الجيش ، كان من الضرورى تسليح العبيد المولودين لأعداء الاسبرطيين ، كما حدث بعد حرب جزيرة اسفاكترى Sphacterie (٤٢٥) .

وفى القرن التالى لا يكون من المواطنين فى جيوش البلوبونيز إلا الرؤساء والقادة فحسب ، فقد خرج أجيسيلاس Agésilas إلى آسيا بثلاثين اسبرطيا لألفى عبد وستة آلاف من الحلفاء . وهكذا اتجهت المدن اليونانية إلى تحوير جيوشها بإدخال عنصر المرتزقة إما لضرورة استخدام الفنيين أو الاضطرار إلى الإكثار من المواقع الحربية المنيعة تبعا لسياسة بيركليس وليزاندر الامبراطورية فى التوسع والغزو .

هذا النوع المختلط من الجيوش معروف فى الشرق القديم ، فالاسرائيليون فى عهد داود (١٠١٠ — ٩٥٥ ق . م) قد أبقوا على تنظيم أنفسهم فى قبائل بما ورثوه عن الحياة القبلية البدائية . وكان جيشهم يتكون من عنصرين : مجموعة المحاربين من مختلف القبائل الذين ينتظمون من تلقاء أنفسهم فى فرق تكون الطليعة . بينما يكون لدى الملك جيش دائم من الحرس (هم المسمون أبطال داود) ومن الجنود المرتزقة من الكنعانيين والفلسطينيين .

أما فى بابل ، فحتى عهد حمورابى (٢٠٠٣ — ١٩٦١ ق . م) كان يوجد جيش دائم يتكون خصوصاً من العبيد والمرتزقة من الجنود ، ومنهم يتكون حرس الملك الخاص ورجال الشرطة . أما المدنيون من الرجال الأحرار فقد كانوا يجبرون أيضا على الخدمة العسكرية بطريق السخرة كلما دعت الحال . ومنذ عهد حمورابى بدأت نواة الجيش تنشأ ، متكونة من بين الجنود من الرجال الأحرار Amelou الذين كانت تربطهم بالملك عقود شخصية . وسيتبين لنا فيما بعد أن الانتقال يكون من أحد هذين النوعين من الجيش إلى الآخر .

ومصر بدورها قد مرت بتطور شبيه بهذا . ففى عهد ملوك طينة وخلال امبراطورية منف القديمة (٢٨٩٥ — ٢٣٦٠ ق . م) نجد إلى جانب

الجنود الوطنيين عناصر من جنود مرتزقة[١] . والأولون لا يطلبون للتعبئة إلا فى حالة الحروب الكبيرة .

ثمة إذن المطلوبون للتجنيد من كل قبيلة ، والذين يتحدد عددهم تبعاً لظروف الأراضى ، وحراس المعابد الذين يخضعون لرجال الدين ، وحرس القصور والمدائن التابعين للأمراء والحكام . أما الجنود المرتزقة فعلى العكس يتكون منهم العنصر الدائم فى الجيش : حرس فرعون الخاص ، والمشاة من رماة السهام الليبيين والنوبيين[٢] . وكما فى بابل — ولكن أسبق منها بخمس قرون — كان الجيش على وشك أن يمزق الروابط التى تربطه ببقية الشعب ليصبح ملكا للملك . إلا أن مما يجدر ذكره مع هذا أنه ما من مرة أصبح فيها الجيش أداة قوة إلا زال بزوال القوة التى استخدمته .

وفيما بين الامبراطوريتين القديمة والوسطى نشاهد فى مصر عوداً إلى نظام الاقطاع تشتتت فيه السلطات العسكرية بين رؤساء القبائل[٣] ومعاركهم

---

(١) كان إلى جانب فرق الجيش المجندة من المصريين وحدات مرتزقة . وكان يقودها كلها القائد العام للجيش . ولم يكن الجيش مؤلفا من جماعات من الرجال المسلحين يقود كل جماعة منهم سيدهم ، بل إن هناك فى الواقع جيشاً حكومياً مؤلفا من وحدات حربية تحت قيادة ضباطه المحترفين الذين تفرغوا للأعمال العسكرية ، ولم يكن لهم أى عمل مدنى آخر . وكان مظهر الجيش فى السلاح والملبس واحدا فى كل فرقة . ويؤيد ذلك الرسوم التى عثر عليها فى معبد « سحورع » حيث الجنود يخطون خطوات منتظمة ويجهزون بعتاد وسلاح حربى واحد وقابضون على أسلحتهم بأسلوب واحد . (المراجع)

(٢) كان الجنود المرتزقة من الزنوج (النوبيين) ومن المحتمل من الليبيين أيضا ، وقد اشترك هؤلاء فى ساحة القتال ليخضع بهم ببي الأول — البدو — تحت إمرة أونى . وكان للمرتزقة إدارة حربية وقيادة . وقد ترك لنا أونى قائمة بأسماء الأشخاص الهامة الذين جاء كل منهم على رأس جنوده مرتبة حسب مكانة كل منهم .

(٣) ذكر الأستاذ سليم حسن أن الجيش فى عهد الأسرة السادسة لم يعد مكونا من وحدات حربية بقيادة ضباط فنيين (محترفين) بل أصبح جيشا إقطاعيا محضا . ولذلك لم تعد الوحدة الحربية هى الفرقة (عبر) بل أصبح الجيش مقسما إلى فصائل مجموعة حسب =

التى لا تنتهى ، من قصر إلى قصر ، مما جعل للضرورات واللوازم الحربية المقام الأول ، وصبغ شعب الفلاحين الوادع الهادىء بالصبغة الحربية . ولا شك أن أثر شعوب الشمال لم يكن غريبا على هذا الروح العسكرى للمجتمع المصرى .

إنما يجب أن نتطلب الصورة الكاملة للجيش المرتزق فى عهود الامبراطوريات الكبرى فى مصر وحاضرتها طيبة ، وآشور ، وفارس ، وامبراطورية الاسكندر . فى هذه البلاد كان الجيش منفصلاً تمام الانفصال عن المجتمع المدنى . وكان نظام الامبراطورية قائماً على القوة . والحاكم الذى فرض نفسه بفتوحه وانتصاراته ، يحكم بالإرهاب كملوك آشور ، أو بقوة الدين كالفراعنة وأسرة أخمينيه (Achéménès) فى الفرس التى انتهت بموت داريوس (٦٨٠ — ٣٣٠ ق . م) . فعلى الشعب المتعلق بالأرض التى يفلحها يضغط نير الحاكم الذى يثقل كاهله بالضرائب والأعباء .

أما جيش الامبراطورية الوسطى فى مصر فهو جيش دائم ، وفى هذا يختلف أساساً عن جيش المدينة الذى هو مؤقت تماماً . فإلى جانب حرس فرعون الخصوصيين ، هناك مرافقو الرئيس Compagnons du chef ومعاونوه من النوبيين (ويسمون مازوى Mazoï) . أما الجزء الأكبر من فرق الجيش فيتكون من المجندين (الزامو Zamou) . وهم إنما يجندهم ضباط الملك بمعدل جندى فى كل مائة رجل . هل نستطيع أن نتحدث إذن عن جيش وطنى ؟ لا ، فإن هؤلاء المجندين وقد أصبحوا جنودا

= تعداد الأقليم الذى جندت فيه وعلى رأسها أمير المقاطعة ونائب الحصن أو الكاهن الكبير الذى كان يحكم الإقليم من الوجهة الدينية . أما جيش المرتزقة فقد بقى تحت قيادة رؤسائه من قادة الجنود المرتزقة الذين عرفناهم منذ الأسرة الخامسة . على أن الجيش وإن كان قد أخذ صبغة إقطاعية محضة فإنه مع ذلك كان تحت إمرة الملك مباشرة . (المراجع)

لا يعودون يختلطون بجمهور المدنيين . والنصوص الهيروغليفية تضع العسكريين ، هؤلاء الذين يعيشون من الجيش (أنخو إن مشاو) فى مقابل المدنيين ، أولئك الذين يعيشون فى المدينة (أنخو إن نوت) . ونجد حينئذ أن طبقة من العسكريين تتكون على إثر المزايا التى يمنحها فرعون لرفاقه فى السلاح ولجنوده .

ونفس هذه الخصائص بالضبط نجدهـا فى جيش آشور . فهو يشمل أيضا المدنيين الخاضعين للخدمة العسكرية (الإيكو I'ikou) والذين يهبهم الملك مزايا وإقطاعات . وفى كلا الحالين ، ثمة مجهود منظم من جانب السلطة العليا لجعل الجيش هيئة مستقلة .

ولمـا غزا كسرى[1] بلاد اليونان ، فـكر المعاصرون فى القيـام لهذا الغزو كتلة واحدة فحدثنا إشيل Eschyle عن آسيا وقد فرغت من جنس الذكور ، كما تحدث هيرودوت عن هذا « القطيع الانسانى الجبار » وعدّد الدول الستة والأربعين التى كان يتكون منها الجيش ، حيث قدمت كل مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية ما لديها من رجال . هنا أيضا لا سبيل إلى أن نتحدث عن جيش وطنى . فالنواة الدائمة التى يتكون منها الجيش إنمـا هى حرس « الملك المعظم » الخاص ، والمكون من الميديين والفرس . وحول هذه النواة تأتى لتتراص جيوش الأقاليم المختلفة ، التى يجندها حكام المقاطعات (المرزبان Satrape) وجنود من المرتزقة ينظمهم ضباط من البلاد تخرجوا فى مدرسة القصر الحربية المخصصة لأبناء الأشراف .

وفى جيش الاسكندر من جيش « الملك العظيم » وجوه شبه قوية ،

---

(١) ملك الفرس (٤٨٥ — ٤٦٥ ق . م) وهو ابن داريوس الأول ، أخضع مصر وعزا بلاد أطيقا وخرب أثينا ولـكنه هزم فى سلامين وعاد أدراجه إلى آسيا هاربا . (المترجم)

إلا أنه قد تطور أثناء الفتوحات التى قام بها . وفى هذا يقول جلوتز Glotz « إن جيش الفرانق لم يعد يشبه جيش الهند إلا كما أشبه جيش أركول جيش مسكوفا » . فى البدء كان أساس الفرق قوامه المقدونيون أنفسهم ، إلا أن ضم الجنود المأخوذين من البلاد المغلوبة سوف يفقد « جيش الهند العظيم » كل طابع قومى ، بينما يتحول المقدونيون أنفسهم إلى مأمورين يخدمون مولاهم فحسب .

بهذا يبدو إذن أن جيش الامبراطوريات بعيد عن القومية . حقا إن الوطنيين لايزالون يكونون جزءاً منه ، ولكن بنسبة قليلة . كما أن استمرار المهمة المنوطة به والمزايا التى يمنحها الرئيس لرجاله من شأنهما أن يجعلا منه عنصرا منفصلا عن المجتمع المدنى . فالجيش الدائم الذى يتكون فى غالبيته من الأجانب هو « أداة قوية » فى يد الملك الذى يجرى عليه الرزق ، إنه يبيع الملك خدماته . فهو جيش مرتزق .

الجيش المركب عند الرومان :

أما حالة روما فهى طريفة بصفة خاصة ليس فقط لأنها فريدة فى نوعها بل لوفرة الوثائق التى تسمح لنا بأن نتتبع عن كثب هذا التطور الذى طرأ على الجيش من جيش المدينة إلى جيش الإمبراطورية . فلم يكن إلا على سبيل الحدس والتخمين ما ذكرنا من بعض مراحل التطور فى جيش مصر ومابين النهرين . أما تاريخ روما فهو الذى يقدم هذه الحلقات المفقودة .

فجيش الملكية إنما يتكون فى أساسه من بين القبائل gentes التى يكون كافة رجالها الصالحين للتجنيد جنودا ، ويقودهم إلى الحرب رب الأسرة Paterfamilias وهكذا نرى أنه فى سنة ٥٠٤ ق . م يخرج أتيوس كلوزوس Attius Clausus فى حملة قوامها خمسة آلاف رجل فى من الجندية

ولاشك أنه كان من بين هؤلاء الرجال متطوعون ، بل ـ ومنذ هـذا التاريخ فيما يبدو ـ مرتزقة . فحتى القرن الخامس لم تـكن الدولة الرومانية من القوة بحيث تبقى محافظة على استعمال قوتها . وكانت حملة الثلثمائة وستة من الفابيين Fabii ضد قبيلة فيلس Veienes (وعددهم ٤٠٧) نهاية عهد من التاريخ .

ومع هذا فإن إعادة تقسيم المدينة إلى قبائل وعشائر مئوية Centuries قد قضى على النظام القبلى القديم . فأصبحت الحرب مشروعا للدولة يشترك فيه كافة المواطنين . واضطرت الحروب الرهيبة التى شنت على السمنيين Samnites وبيروس Pyrrhus إلى استدعاء كل الرجال القادرين على حمل السلاح ـ على أن يتناوبوا الخدمة مناصفة ، فيسرح كل سنة عشر كتائب من بين العشرين قبيلة .

لم يكن التطوع إلا رصيداً مدخراً ، ولـكن الجيش الرومانى فى القرن الخامس ق . م . هو فى أساسه جيش قومى . ومع هذا فليس إلا فى سنة ٢٧٥ حين باع القنصل كوريوس دنتاتوس Curius Dentatus لأول مرة أملاك المواطنين الذين لمادعوا إلى التجنيدلم يستجيبوا للنداء . ولايصبح مبدأ الخدمة العسكرية الإجبارية مطلقا إلا منذ أن استبدل القسم الفردى jusjurandum أثناء حرب قرطاجنة الثانية (١) بالقسم الجماعى لجملة المحاربين Conjuratio.

---

(١) قامت بين قرطاجنة وروما حروب ثلاثة كبيرة طاحنة انتهت بالقضاء على قرطاجنة وكان منشؤها اتجاه أنظار الرومان إلى صقلية التى كان قد سبق أهل قرطاجنة بالاستيلاء عليها - واستمرت الحرب الأولى من ٢٦٤ إلى ٢٤١ ق.م . وكان ميدانها صقلية وانتهت بانتصار الرومان وإخضاع الجزيرة لروما . اما الحرب الثانية فقد قام بها البطل هانيبال من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق.م الذى بعد أن احرز انتصارات كثيرة على الرومان فى إيطاليا والغال والألب انقطعت عنه الإمدادات فضعف امام القائد الرومانى فابيوس Fabius ثم شبيون Scipion حتى هزم فى واقعة زاما (٢٠٢ ق . م) وقبل للصلح مع الرومان معاهدة ذليلة .

وكانت الحرب الثالثة قصيرة وحاسمة (١٤٩ ــ ١٤٦) وانتهت بالقضاء على قرطاجنة (المترجم)

إلا أن الغزو قد غير تماماً طبيعة هذا الجيش . فإن الرومان لما سادوا إيطاليا منذ القرن الثالث ق.م . قد طلبوا إلى المدن المتحالفة معهم أن يمدوهم بالرجال . هؤلاء هم الحلفاء Socii فى مقابل الفرق الوطنية أو الكتائب . فلا ينتهى القرن الثالث حتى يقدر « بوليبيوس » الفرق الرومانية بنسبة ٤٣٪ وفرق الحلفاء بـ ٥٧٪ .

ومنذ هذا الوقت أصبح الرومان أقلية فى داخل الجيش الأيطالى ، وفضلا عن هذا فقدعادوا إلى الاستعانة بالجنود المرتزقة . وفى القرن الثانى يساهم الشرق برماة السهام من أهل كريت ومصوبى المقلاع من أهل أخائيا Achaie (١) كما يأتى من الغرب فرسان إسبانيا . فلما تم هذا التطور كان الانطلاق فى حروب القرن الأول المدنية ، والحملات المتصلة التى شنها ماريوس Marius وسلا Sulla وبومبيوس Pompée وقيصر César ، واضطرار كل من هؤلاء إلى ألا ينزع الجيش سلاحه قد جعل للجيش طابع الدوام والاستمرار . إلا أن هؤلاء الرجال الذين يسيطر القائد بعظمته على أفئدتهم يرتبطون به ويصبحون جنوده . ومن هنا نشأت الدكتاتورية العسكرية لقيصر .

ومنذ ذلك الحين أصبحت الأمبراطورية ممكنة ، يقوم عليها جيش دائم من المتطوعين يتعاقدون لعشرين سنة ، وحاول أغسطس أن يحتفظ للكتيبة بطابعها الرومانى ، ومع هذا فقد كانت الكتائب فى الشرق غالبا ماتجند فى

---

(١) القسم الشمالى فى بيلوبونيس وكان يطلق عليه إيجاليا أى المنطقة الساحلية يحده شمالا خليج كورنثه وبحر إيونيا وجنوبا إيليس وأركاديا .

إحدى نواحى تيساليا .

ولاية رومانية

أحد الأجناس الهلينية كان يسكن فى تيساليا ثم هاجر إلى بيلوبونيس ودانت لهم كل البلدان ماعدا أركاديا والمنطقة التى عرفت فيما بعد باسم Achaia ويطلقه هوميروس على جميع الأغريق (المراجع)

الميدان . يضاف إلى هذا أن الفرق الإضافية يزداد عددها ويتضخم بما ينضم إليها من رجال الحلفاء وحرس الأمبراطور الخاص وحرس الحكام (البريتور) Cohortes Pretorienne ـ وهذا عنصر جديد من عناصر الأمبراطورية . والجملة إذن ثلثمائة وخمسون ألف رجل كلهم مأجورون مابين الحارس البريتورى الذى يتقاضى ٥٠٠ ديناراً فى السنة إلى جندى الفرق الإضافية الذى ينزل راتبه إلى ٧٥ دينارا . وهذا هو الجيش المرتزق الذى يخلع رداء القومية قليلا قليلا لأن الإيطاليين ينصرفون عن حرفة السلاح ، ولأن الجيش الامبراطورى فى روما ـ كما فى مصر القديمة وفى الشرق ـ لم يعد غير أداة للقوة ، غير أنه هنا فى خدمة السلام الرومانى .

٢ — دراسة داخلية : تنظيم الجيش ومهمته :

إن أنماط الجيوش القديمة تترجم بنظامها عن الأصل الذى نشأت عنه والمهام التى عهد بها إليها .

جيوش المدائن :

والأرقام التى لدينا عنها محدودة نظرا لأن الطريقة ذاتها التى كان يتم بها التجنيد غير محددة . فاسبرطة إذ كانت تنقرض بكارثة « نقص الرجال » ، رأت جيوشها دائما محدودة العدد وتتناقص شيئاً فشيئاً . ويقدر هيرودوت الاسبرطيين الصالحين للقرعة العسكرية فى سنة ٤٨٠ ق.م بثمانية آلاف رجل ، أصبحوا فى سنة ٣٧١ لايزيدون على ألفين ، وفى ٢٤٢ لايكادون يبلغون سبعمائة ، رغم اجتلاب الأجانب أكثر فأكثر . وفى القرن الخامس كان الجيش يحتوى على سبع كتائب كل منها ستمائة وأربعون رجلا يعنى أربعة آلاف وأربعمائة وثمانون جنديا يضاف إليهم المرتزقة .

ويبدو أن أثينا فى سنة ٤٣١ كان لديها جيش عامل قوامه أربعة عشر ألف رجل يضاف إليهم جيش وطنى من ١٤٠٠ تحت التجنيد ، ٢٥٠٠ من المحاربين

القدماء و ٩٥٠٠ من المستوطنين الغرباء . والمجموع حوالى ٢٧,٥٠٠ جندى تقريبا . ونجد لدى المدن الأخرى غير أثينا أرقاما مشابهة ، فلم تزد قيمة جيش المدينة عن ذلك قط .

وتكوين هذه الجيوش بسيط جدا . فالمشاة تسيطر عليها بشكل واضح . وفى اسبرطة كانت كلمة « مواطن » تكاد تكون مرادفة لكلمة : جندى المشاة المسلح hoplite . هذا الجندى الراجل يغطيه الدرع والخوذة المعدنية ، ويحميه المجن الكافى لوقاية الجسم كله ، والمسلح بالسيف المستقيم والرمح ، هو الذى أكسب الجيوش الإسبرطية شهرتها . ووحدة الجيش الرئيسية هى الكتيبة (اللوخوس lochos) المكونة من ٦٤٠ رجلا . وخلال القرن الخامس يظهر اللواء (المورا Mora) الذى يضم كتيبتين إحداهما من الوطنيين والأخرى من الأجانب . وإلى جانب هذه النواة المتينة للجيش المكونة من جنود الفرق العاديين توجد فصيلة الجنود الممتازين هم الصفوة أو الطليعة : الحرس الملكى الذى قوامه ثلثمائة جندى يختارون من بين الشباب الاسبرطى الباسل لتتكون منهم أيضاً فرقة المشاة الثقيلة .

إلا أنه يوجد فوق هذا جنود إضافيون ، من الرقيق والمرتزقة والحلفاء تحت قيادة الضباط الإسبرطيين ، ومنهم تتكون خصوصاً المشاة الخفيفة ، كما أنهم يزودون بأسلحة مخصصة أهمها القوس والمقلاع .

وفى أثينا نجد جيشاً مماثلا لجيش اسبرطة : فالجيش « العامل » يتكون فى نصفه من « مشاة ثقيلة من الراجلين » . الراجلين المقيدين بالقائمة (من العشرين إلى التاسعة والأربعين) ، والمزودين بسلاح ثقيل (فعداتهم هى الدرع ، والخوذة ، ووقاء الساق ، والمجن الذى يصل وزنه ٣٥ كيلو جراما) ومع هذا فثمة المشاة الخفيفة ، ويمثلها خصوصاً الفقراء Thètes والمرتزقة

سلاحهم سهام كريت ، ومقاليع رودس وأكارنينا ، ودروع تراقية الصغيرة من الخشب المطرز بالجلد . . . الخ . ولقد جاء تنظيم هذه الفرق متأخرا.ففى سنة ٤٣١ لم تزد على ١٦٠٠ رجل . ولكن عددها زاد بعد ذلك .

ولم يكن للفرسان فى اليونان القديمة إلا دور ثانوى . ومع هذا حتى القرن السادس كانت العجلات الحربية ـ الموروثة من عهد هوميروس ـ تلعب دورا مهماً . ومنذ ذلك التاريخ ترجل الملوك والنبلاء الذين كانوا يمتطون هذه العجلات ـ بعد أن لم يعودوا يثقون فى أعدائهم ـ وحاربوا مترجلين . ومثل ذلك فعل الفرسان . فقل دور الفروسية بقدر ماتحطمت الأرستقراطية وفقدت قوتها .

ثم إن تجهيز الخيل والعناية بها يكلف كثيراً . وتفسر التغيرات الاقتصادية والاجتماعية لليونان فيما بين القرنين الثامن والسادس انحدار الفروسية . وأراد تميستوكلس أن يحمل مواطنيه على « المقعد والمجداف » وأن ينزل بالمدينة كلها إلى البحر . فكان تجهيز الأسطول الذى ألقى عبؤه منذ ذلك الحين على عاتق الأغنياء ـ كان ثمة الأمر خصوصاً بتجهيز فرقة من ثلاث سفن على نفقة الغنى الخاصة بصفة إجبارية . . . كل هذا كان على حساب الفروسية التى لم تعد تزيد فى القرن السادس على ٩٦ فارسا يقاتلون مترجلين !

إنما كان رد فعل هذا الإهمال للفروسية إثر الحروب التى قامت بين اليونان والفرس ومعركة بلاتيا التى لم يكن لدى اليونان فيها رجل واحد تستطيع أن تواجه به الخمسة آلاف فارس الذين جاء بهم ماردنيوس Mardonius [1] فمنذ سنة ٤٧٦ كونت أثينا لنفسها سلاح فرسان حقيقى من ثلثمائة من الخيالة

---

(١) قتل هذا القائد الفارس مع هذا فى معركة بلاتيا هذه سنة ٤٧٩ ق . م (المترجم)

أضيف إليها فيما بعد مائتان من رماة السهام المرتزقة. فكان الفرسان الأثينيون المسلحون بالسهام والمزاريق (الرماح)، الممتطون صهوة الجياد دون ركاب أو سرج (إذ استعيض عن هذه بغطاء مثبت بحزام من الجلد)، أشبه فى عظمة مظهرهم بأهل بيوشيا Beotiens الذين كان فرسانهم ذوى شهرة عظيمة.

أما اسبرطة فيبدو على العكس أنها قد تهربت تماما من الفروسية. إذ لم يبلغ فرسانها أكثر من ثلثمائة رجل. وكانت تهرب أثناء الحرب مع هذا خصوصاً بفرسان بيوشيا، وبنسبة ضئيلة ممن عداهم.

وجيش المدينة المحدود فى أرقامه لا يمكن أن تكون أهدافه الا محدودة هى الأخرى. فإن أكبر الحروب فى تاريخ اليونان — إذا استثنيا حروب الإسكندر — هى الحروب الميدية. ولكن أول تفوق فى السلاح إنما يرجع إلى معركة ماراثون وحدها (٤٩٠) حيث لم يتمكن الأعداء من مجرد النزول إلى البر فكل مائتين من القتلى فى جانب الأثينيين يقابلهم ستة آلاف فى جانب الفرس هذه هى تقاليد أثينا، وتلك هى ميزاتها فى القتال التى جعلت لها المقام الأول بين المدن الحربية فى العالم القديم.

وفى سنة ٤٨٠ دفعت بلاتيا إلى صفوف القتال بجنود من اليونان كلها عددهم أربعون ألف مقاتل فى مقابل مائة وعشرين ألفا من الفرس. ومع هذا فليس ذلك إلا خليطاً ممتزجا، وانتصارا للخطة (التكتيك) سببه ضعف الموقع الاستراتيجى. فقد غلبهم اليونان بفضل جنودهم المتفوقين فى السلاح ولكن قائدهم الأعلى بوزانياس Pausanias الاسبرطى كان قد أظهر عجزه عن أن يحصل على أرقام تماثل السابقة.

والمعيار الحقيقى للإمكانيات الحربية للمدن المختلفة إنما يظهر فى حرب البلوبونيز وإن كانت مهارة توسيديد Thucydide تخفى أحيانا طابعها الحقيقى

فهى حروب داخلية قوامها نصب الكمين والتشابك بالأيدى دون ما معركة حقيقية. لقدأصبح كليون Cléon « بطلا وطنيا » لأنه على رأس ثمانمائة مقاتل وأربعمائة من رماة السهام قد أحدق بجزيرة اسفاكترى الصغيرة (وطولها أربع كيلومترات وبها أربعمائة وعشرون اسبرطيا) وعاد ومعه ٢٩٢ أسيراً. كما أن حملة صقلية التى تبدو لمعاصريها شيئا غير عادى ، إنما كان قوامها ١٤٣ سفينة تنقل خمسة آلاف مقاتل وثلاثين فارسا . هذه هى العملية الحربية الوحيدة ذات التفوق الكبير ، والتى انتهت بكارثة .

جيوش المرتزقة

من المستحيل أن نعطى لجيوش الامبراطوريات فى الشرق بيانات محددة الأرقام ، فإن مصر فى عهد ملوك طيبة قد كان لها ـ كما روى هيرودوتس ـ ٤١٠ ألف مقاتل تتكون منهم طبقة وراثية ، ولكن النصوص الهيروغليفية غير دقيقة فى جملتها تماماً ، وهاهو ذا رمسيس الثالث يعلن أنه « قد أنشأ طبقات عديدة من المجندين ، وكثيراً من المشاة ، ومئات الألوف من راكبي العجلات الحربية ، وجلب الجنود المرتزقة بلا عـــدد ، وفى الظهيرة عشرات الآلاف » .

وفى آشور ، كان تعداد جيش سالماناسار الثالث Salmanasar (٨٥٨- ٨٢٤) الذى استولى على دمشق مائة وعشرين ألف رجل ، وفى الفرس جيش كسرى Xerxès الذى غزا بلاد اليونان يقدر ـ كما ذكر هيرودوت ـ بمليونين وستمائة واحد وأربعين ألفا ومائة وعشرة من المحاربين (ويالها من دقة !) أنقصهم أفلاطون إلى ثلثمائة ألف من المشاة وستين ألفا من الفرسان .

ولما دخل الأسكندر آسيا كان معه ٣٢ ألفا من المشاة وخمسة آلاف من

الفرسان ، عدا جيشه الكبير (جيش الهند) الذى بلغ تعداده كحد أقصى ١٢٠ ألف رجل فى جملته .

وجيش الامبراطورية الرومانية لا تقل أرقامه عظمة عن هذه . فقد بلغ فى عهد أغسطس ٣٥٠ ألف رجل فى الجملة . وزاد تراجان هذه الأرقام فبلغ عدد الكتائب فى عهده الثلاثين ، وهى ذروة التنظيم الحربى لروما القديمة . فإن الحد الأقصى لتعداد جنودها يدور حول الأربعمائة ألف . ولم يكن ذلك بكاف لصد هجمات البربر . ومنذ عهد هارديان ، بدأت سياسة الأباطرة تتركز فى خطط الدفاع ، فاستندت الفرق القليلة جدا إلى تحصينات وخطوط دفاع Limes هى فى ذلك العصر أشبه بخط ماجينو الفرنسى إبان الحرب العالمية الثانية .

وكما تفوق جيوش المرتزقة فى أرقامها بكثير جيوش المدائن ، فهى تختلف عنها كذلك فى تركيبها . فى بلاد الشرق : مصر ومابين النهرين ، نجد عناصر ثلاثة رئيسية : المشاة الثقيلة ، والمشاة الخفيفة ، والعجلات . وثمة فرق متخصصة فى حفر الخنادق تحت الجدران بما يحمل رجالها من « بلط » ومعاول .

أما جيش الفرس وجيش الاسكندر والجيش الرومانى فيتمثل فيها عنصران فقط : المشاة والفرسان . ويجب أن نميز فى المشاة بين « مشاة الطليعة » المكونة من المحاربين من الميديين والفرس أو الجحافل المقدونية والكتائب الرومانية ، وبين المشاة الخفيفة التى تقدمها البلاد الخاضعة للامبراطورية ، كالفرق المتنوعة فى جيش كسرى ، المجندة من ستة وأربعين بلدا مختلفة كلها فى لغتها وفى سلاحها (القوس ، والعصى الغليظة ، والمقلاع ، والمزاريق ... إلخ) . وجنود الشرق فى جيش الاسكندر (من الفرس

والهنود . . . إلخ) ورجال الحلفاء في مقاطعات أغسطس (نوميديا ، وموريتانيا ، وتراقية ، التي منها كان يجيء رماة السهام ومصوبو المقلاع .

والجيش المرتزق هو في أساسه أداة للغزو ، فالفراعنة الأقوياء هؤلاء الذين كانوا يعيدون النظام إلى مصر بعد فترات الفوضى الاقطاعية الدورية كأمنحتب الرابع وتحتمس الثالث ورمسيس الثاني وشيشنق الأول يستأنفون الغزو بمجرد أن يعيدوا تنظيم الجيش . والنوبة في الجنوب ، وكنعان في الشمال هما الهدفان اللذان طالما شن الغارة عليهما خلال آلاف السنين ملوك مصر المتعاقبون . كذلك لم يتعد الأمر غزوات محدودة بقصد الاستيلاء على وادي النيل . أما ملوك آشور فلا بد لأحدهم في هذا السهل الذي يحفه من كل الجهات سكان الجبال من أن « يغلب أو يموت » . فكان هذا « الفزع » الآشوري سلاح دفاع أولى منه سلاح هجوم . كذلك حتى عهد هادريان ظلت الامبراطورية الرومانية هي الغالبة .

وجدير بالذكر أن الجيوش المرتزقة هذه غالباً ما تكون غير كافية في حالة الدفاع ، فإن ضآلة عددها الكبير ـ رغم أهميتها البالغة ـ عن أن تغطي حدودا واسعة من الأرض يجعلها تتجمع في المواقع الحساسة فحسب ، تاركة الداخل غير مسلح تقريباً . فحسب العدو أن يجد منفذا في صفوف دفاعها ليتسلل دون مقاومة إلى قلب الامبراطورية . وقد شهدت مصر من هذا النوع غارات الهكسوس . كما وقعت بابل هكذا في يد الفرس فالإسكندر ، وكما اهتزت روما في عهد أغسطس إزاء عصيان دلماشيا وبانونيا . فكل هذه الامبراطوريات تندحر أمام جيوش أكثر عددا أو أحسن عُددا .

الدور السياسي والاجتماعي للجيش القديم :

إن مكان الجيش فى المجتمع وعلاقاته بالسلطات المدنية ليست هى هى بعينها بالنسبة لجيش المدينة والجيش المرتزق .

ذلك أن الجندى فى جيش المدينة إنما هو « مواطن مسلح » . ولكنه فى هذه الحالة - المؤقتة تماماً - يبقى مدنيا ويندمج فى الحياة السياسية للمدينة . فهو يشترك فى اجتماعات الجمعية الوطنية ويشارك فى التصويت على قوانينها وفى انتخاب حكامها . وليس للشاب الأثينى أن يكون عضوا فى الجمعية الوطنية إلا بعد انتهاء خدمته العسكرية بسنتين . إلا أنه متى تم أداء هذا الواجب الوطنى ، وسواء جند له أو لم يجند ، فهو يصبح مدنيا . فليس للجندى إذن حالة قانونية خاصة به . والمعادلة : الجيش = المدينة ، صحيحة إلى حد أن تكوين الجيش إنما يحدده تعداد المدينة .

والحق أننا نجد فى جيش أثينا الطبقات الانتخابية التى نجدها فى المدينة تحت حكم كلثينيز[١] . فقد كان كبار الأغنياء pentacosiomédimnes يقدمون بعض الفرسان . ولكن أغلبهم كانوا من مجهزى السفن الحربية ذات الطوابق الثلاثة من البحارة Trière ، أما الطبقة التالية Hippels

---

(١) كلثينيز Clisthenes حد بركليس . طرد هيباس Hippias من أثينا سنة ٥١٠ ق . م بعد مقتل أخى هذا (هيباركوس Hipparcus) سنة ٥١٤ ، وقام بأهم إصلاح دستورى منذ سولون ؛ وذلك بتوسيعه الأقسام السياسية لأتيكا وجعلها تضم عشر قبائل بدلا من أربعة . وحقق الديمقراطية بجعل المواطن ينتمى إلى الحى بدلا من الانتماء للعشيرة مما كان يعتبر أساسا للتمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، معترفا بذلك بصفة المواطن للكثيرين من المستوطنين لأن الانتساب إلى الحى قد حل محل الانتساب للعشيرة .

وأعاد كلثينيز تنظيم الجيش على هذا الأساس العشرى للقبائل . فتكونت هيئة القيادة من عشرة وأصبح الانتخاب بالقرعة تحقيقا للمساواة بين الطبقات - التى لم تزل رغم هذا لها قوتها وسيطرتها (المترجم)

فكانوا يقومون بالفروسية . وأما طبقة المشاة والمستوطنين الأغنياء Zeugites فكان منهم المحاربون المسلحون وأخيراً فإن طبقة الفقراء جدا Les thètes كانوا يشتغلون فى المشاة الخفيفة وفى الأسطول(١) .

ونجد للكتيبة الرومانية الأولى نفس هذه الخصائص . فإن تنظيمها الذى جرت التقاليد بنسبته إلى سرفيوس تليوس Servius Tullius إنما يقوم على أساس الطبقات الانتخابية الخمس للمواطنين . إذ تقدم كل من هذه الطبقات عدداً بعينه من الفرق المئوية Censitaires وللأغنياء ميزة الخدمة فى سلاح الفرسان(٢) .

---

(١) كانت طبقات الأثينيين فى عهد الملكية والأرستقراطية أربعا : النبلاء وكبار الملاك ثم صغار الملاك فالصناع والتجار وأخيراً العمال ولكن التطورات الاجتماعية والسياسية قد حصرتها بعد ذلك فى ثلاث لم تكن الفواصل بينها قوية وإن قامت على أساس الثروة أيضاً فأصبح كافة الملاك ومن يستطيعون الفروسية أو يملكون الخيل طبقة الفرسان Hippes . وكان المواطنون ميسورو الحال الذين يستطيعون أن يجهزوا أنفسهم بالسلاح ويخدمون فى فرق المشاة الثقيلة طبقة ثانية Zeugitae . أما الفقراء من العمال والذين لا يملكون شيئا Thètes فنهم تتكون المشاة الخفيفة وبحارة الأسطول . وقد كانت الحقوق السياسية وتولى الوظائف العامة قاصرة دائما على الطبقتين الأوليين . (المترجم)

(٢) فى تقسيم هذا الملك للرومان إلى طبقات اجتماعية نلمس كذلك الدافع الحربى ومدى قدرة كل طبقة على خدمة أحد أسلحة الجيش كل حسب مواردها المالية . فثمة الفرسان . وعددهم ١٨ وحدة مئوية وهم طبقة أولى . أما المشاة فينقسمون خمس طبقات تتدرج فيما يملك أفراد كل منها من الثروة العقارية مقدرة بالآس . كما تختلف فى عدد وحداتها من الثمانين إلى العشرين . فالذين لا يقل دخلهم عن مائة ألف آس هم الطليعة من الصفوف بعد الفرسان يليها طبقات أربع أخرى تتدرج دخل جنودها من ٧٥ ألف آس إلى ٥٠ ألفا فخمسة وعشرين فاثنى عشر ألفا وخمسمائة آس — ثم الفقراء والذين لا يملكون إذا دعت الضرورة لاستخدامهم .

هذا الترتيب العسكرى ذاته كان هو المعمول به فى حالة التقدم للتصويت فى الانتخاب فالفرسان أولا ثم رجال الطبقة الأولى من المشاة ، فالطبقات التالية إذا كان قد بقى مجال لأخذ أصواتها .

(المترجم)

ولكن جندى الامبراطورية ـ على عكس جندى المدينة ـ غالبا ما يكون جنديا محترفا . فهو يتعاقد لمدة من الزمن تكون طويلة عادة ، كما يتمتع بحالة قانونية خاصة . والرئيس حقا فى حاجة إليه ، فهو يغدق عليه المزايا . لذا عرفت مصر فى عهد طيبة ، طبقة عسكرية ، قوية . ووهب فرعون جنوده إقطاعات من أرضه كما كان يضمن لهم أرزاقهم ، ويورث أبناءهم مناصبهم ، ويعفيهم من الضرائب ويتلقى بنفسه شكاياتهم .

وفى بابل منذ عهد حمورابى كان الجندى يربطه بالملك اتفاق ـ فهو يسمى redoum أو bairoum أى الصائد أو الآخذ . لأن الملك يهبه فى صورة ، منافع مرتبة مدى الحياة ، أرضاً ذات منزل وعجول وخراف .. فى مقابل التزامه الشخصى بالخدمة العسكرية . هذه المنحة هى الايلكو Ilkou الذى يصبح فيما بعد قابلا لأن ينتقل إلى الخلف .

واستطاع أغسطس أخيراً أن يضع بطريقة محددة العهد العسكرى Conditio militiae الذى يبين التزامات الطرفين ، فيرتبط الجندى بأن يخدم مدة معينة ، وأن يخضع للنظام العسكرى والعزوبة . وهو فى مقابل هذا يتلقى المعلوم stipendium (كما كانت الحال من قبل فى جيوش العالم القديم وفى أثينا) ومنحة مالية عند تسريحه ، وأرضاً يتملكها ملكية تامة فى إحدى المستعمرات ، وأخيراً ـ فى حالة ما إذا لم يكن مواطناً ـ الارتباط بقانون المدينة.

فجندى الإمبراطورية يربطه بالرئيس إذن ارتباط شخصى بينما جندى المدينة لايعرف إلا الارتباط بصالح الوطن .

وفى القيادة أيضاً توجد فروق مماثلة . ذلك أن رؤساء المدينة يكونون فى نفس الوقت رؤساء الجيش المدنى ، فمثلا فى أثينا القواد الحربيون هم تميستوكليس Themistocles وأرستيدس Aristides وسيمونيس Cimones وإفيالتس Ephialtès وخصوصاً بيركليس Pericles الذى أعيد انتخابه خمس

عشرة مرة متوالية ، أما فى روما فهم القناصل الحكام السنويون وأحياناً جنرال صغير كشيشرون . أما من دون هؤلاء القادة الأعلون من الضباط فهم فى أثينا ينتخبون ، ولكن فى روما تدخل الوظائف العسكرية فى عداد أعمال الشرف Cursus honorum التى ينخرط فيها كل رجل يريد أن يشغل وظيفة عامة ، والضباط ـ كما هى الحال بالنسبة للجنود ـ ليس لهم وضع قانونى خاص فى جيش المدينة . فالسلطة الحربية مختلطة بالسلطة المدنية ، والجمعية الوطنية السياسية (البولى Boule أو الجيروزيا Gerousia أو السناتو senat) هى المسيطرة فى وقت الحرب كما فى وقت السلم .

أما الإمبراطوريات ـ فعلى العكس ـ تفصل بوضوح بين المجالين . فمصر تحت حكام طيبة لها نبلاؤها العسكريون الذين يتوارثون النبالة إلى جانب الإقطاعيين الحقيقيين ، ثم إن انتشار طريقة السلب والاغتصاب من جانب زعماء المرتزقة للمزايا الكبيرة سيؤدى إلى انهيار الإمبراطورية ، وتجزؤ البلاد . وفى بلاد ما بين النهرين وفى فارس نجد بالمثل نبالة عسكرية أهم مبرر لوجودها هو احتراف الجيوش . والإمبراطورية الرومانية وحدها هى التى احتفظت عن المدن الأولى بمبدأ المزج بين السلطتين العسكرية والمدنية . فصغار الضباط أشبه بالجنود من المحترفين . وليس إلا فى عهد الإمبراطورية السفلى ، وحين يكون قد زال كل أثر للجمهورية ، حيث نجد القواد العسكريين هم خاصة أصدقاء الأباطرة .

انحلال الجيش القديم :

إن المجتمعات القديمة كلها إنما هى مثال للتطور من المدينة إلى الامبراطورية ، تطوراً يكون « داخلياً » عندما تكون المدينة هى ذاتها عامل التغير الذى طرأ عليها ـ أى بصفة عامة عندما تكون غالبة ؛ مثل قبائل مصر القديمة ، وسومر ،

وروما على وجه الخصوص ، ويكون التطور « خارجياً » عندما تمتزج قوات المدينة بقوة الإمبراطورية الغازية . وهذه حالة المدن اليونانية التى أخضعها الإسكندر .

فى الحالة الثانية يكون الاعتبار الأول لدى الغالب بطبيعة الحال أن يجرد المدينة من سلاحها ، تلك المدينة التى لا يقوم جيشها بعد إلا بوصفه «شرطة» يكلف بأعمال البوليس المحلى . فأثينا ، رغم إصلاح ليكرغ Lycurgue الذى أنشأ سنة ٣٣٥ الخدمة العسكرية العاملة الإجبارية، قد بقيت إقطاعية لكاسندر Cassandre [1] فى عهد ديمتريوس دى فالير Démètrios de phalère وليس لها إلا جيش محلى لم يلبث أن ذاب فى جيوش أنتيجونوس Antigonos

إنما يجب إذن أن نتتبع فى الامبراطوريات انحلال الجيش القديم . فمن القديم منذ آلاف السنين نجد فى مصر والشرق وفى روما طرقاً تتجه اتجاها واحداً . فإن « طبقة العسكريين » التى أشرنا إلى أصلها تنعزل ، وتثبت على الأرض بما لها فيها من منافع . وباستقطاع الأرض هكذا تنسى الخدمة التى تدين بها للرئيس ، فلا تبقى تحارب إلا لحسابها الخاص .

من ثم يستدعى الامبراطور إذن أجانب (من البرابرة) ولكنه بدلا من أن يوزعهم على جيوشه ، التى منذ ذلك الحين لا يكون لها وجود ، يعهد إليهم بالعمل كتلة واحدة ، قبائل بأسرها تحت قيادة رؤساء من جنسهم ، وهكذا يصبح تحت رحمتهم ، ولا يلبث أن يجىء اليوم الذى يخلعه فيه الزعيم الأجنبى عن عرشه بعد أن يصبح ألعوبة فى أيديهم ؛ بينما على الحدود التى

---

(١) أحد ملوك مقدونية (٣٥٤ — ٢٩٧) أخضع اليونان بعد أن انتصر فى ميغالوبوليس Megalopolis (٣١٨ ق . م) وتزوج أخت الإسكندر الأكبر (تيسالونيس) وأهلك أسرته جميعاً وظل ملكا لمقدونيا واليونان بعد معركة إبسوس Ipsus (٣٠١) . (المترجم)

يحرسها أسوأ الحراسة مرتزقة آخرون من هؤلاء الأجانب ، وغالباً من نفس الجنس ، جيش آخر يضغط ويتسلل . فتموت الامبراطورية فى نفس الوقت الذى يموت فيه جيشها .

هكذا هاجمت إمبراطورية منف المصرية القديمة عناصر سورية . فتلت الوحدةَ والمركزية فوضى إقطاعية استمرت قرنين (٢٣٦٠ — ٢١٦٠) . فالأمراء هم قادة الجيش ، ورجال الدين الأعلون ، وسادة الأرض ، والقضاة والحكام. وهم يعيشون فى قصورهم يتسلون بالتدريبات العسكرية . ولأول مرة فى الحضارة المصرية تخصص ساحة كبيرة لاستعراضات الجنود . ثم ها هى الإمبراطوريه الوسطى تندحر أمام قوة أشد قسوة ؛ أمام غزوات الهكسوس الفظيعة (حوالى ١٦٦٠ ق. م) ولكن الإمبراطورية الحديثة ـ على العكس ـ قد شهدت انحلالا بطيئاً منذ رمسيس الثالث . فإن طبقة العسكريين تستبد كلما قويت شوكتها بالوراثة ، وتحتكر مع الملك ورجال الدين ملكية الأرض. ومن هنا بالذات تلقى السلاح فنرى رمسيس الثالث مضطراً إذن إلى الاستعانة بالليبيين ـ الذين كان مع هذا قد دحرهم ـ ليكونوا حراساً لبلاده . وأعلن فرعون قائلا « لقد أقمت رؤساءهم باسمى فى حصونى » . ومرة أخرى تتجزأ مصر ، ولا يقوى الملوك الليبيون والأثيوبيون أن يفرضوا سلطانهم على إقطاعية الجند ، فيأتى الآشورى ليضع حداً للتجديد الدورى لهذا التاريخ الطويل (٦٧١ م) .

وفى روما نجد أيضاً مثلا كاملا لهذا التطور . فقد كان الجيش السناد الحقيقى للامبراطور . لقد أصبح أغسطس بانتصاراته السيد الأعلى ، ومنذ كلود Claude كان الجنود هم الذين يضعون أو يخلعون الأباطرة . إلا أن الجيش يخطىء بضعفه فى العدد . فقد انتهى أمره إلى خمسين ألف رجل فى الغرب كله . هذا كل ما استطاع الإمبراطور أن يجده فى سنة ٣٥٧ لكى

يواجه جموع الفرنجة والألمان فى بلاد الغال وهو يخطىء بالاقتراع الذى يستبعد العبيد كما يستبعد الأغنياء. ولا ينصب من الناحية العملية إلا على المزارعين الأحرار Colons عبيد الأرض الذين يقدمهم للتجنيد سادتهم من كبار الملاك ـ لما هو مفروض على هؤلاء من تقديم عدد بعينه من الرجال. إن الخدمة العسكرية تعتبر إذن عاراً حقيقيا، وتصبح قيمة الفرق العسكرية لاشىء. وبقدر ما لجئوا ـ لتجنب الهرب من الخدمة الإجبارية ـ إلى جعل حالة الجندى وراثية يتوارث فيها ابن الجندى مركز أبيه؛ أصبح الجيش طائفة: بل من أحقر الطوائف ومنذ ذلك الحين لا تعود له قيمة إلا بالبرابرة يزدادون عدداً، و لا يبقى فى الجيش الرومانى إلا رومانى واحد؛ هو الإمبراطور. فهم يتسلطون على كافة الرتب والدرجات، وذات يوم فى سنة ٤٧٦ — وبالتحديد ٤ سبتمبر — جرد أودواكر Odoacre رئيس الجيش (وهو أجنبى من جزيرة أسكيروس اليونانية) روميلوس أوغسطول Romulus Augustule من سترته الأرجوانية. وبهذا كان الجيش قد أجهز على الإمبراطورية.

الفصل الثانى

المجتمع المسلح

العصر الإقطاعى الأول (من القرن الخامس إلى الثانى عشر)

ثمة تاريخان - فى المجال السياسى - يحد بهما العصر الوسيط لانستطيع الأحداث الاجتماعية أن تتكامل معهما . فإن مارك بلوخ Marc Bloch - وهو بصدد وصف المجتمع فى العصور الوسطى - يميز عصرى إقطاع يجعل الفاصل بينهما النصف الثانى من القرن الحادى عشر . ولكننا - فيما يتعلق بالجيش - نستطيع أن نستمر حتى سنة ١١٥٠ .

فالحق أنه فى هذا التاريخ تظهر القوانين الأولى التى تحظر على الطبقات الدنيا حمل السلاح . فيتخلى التاجر عن سيفه . وهو إيذان ببدء عالم لم يعد السلم فيه شيئاً استثنائياً .

١ — التذبذب التاريخى

(ا) من القرن الخامس إلى العاشر :

جندى الدولة أو المحارب الحر

إن شعوب البرابرة التى سكنت رومانيا فى القرن الخامس هى جيوش مكلفة نظرياً من قبل ملك روما بحماية الامبراطورية بوصفهم حلفاء . هذه الجيوش إنما يقوم بنفقتها الإمبراطور ، الذى يلقى بين يدى رئيسها أتولف Athaulf أو جنسريك Genseric بالجزية ، أى المبلغ الإجمالى - المحدد

بمقتضى معاهدة - لمجموع الرواتب التى يجب دفعها للجند. يضاف إلى هـذا حق إنزال الجنود بالمنازل. فكل ساكن يجب أن ينزل عن جزء من مسكنه (الثلث عموماً) بمقتضى تقديم أوراق السكن.

ولدى هذه الشعوب - كما هو ظاهر - كل رجل صالح للجندية يجب أن يكون محاربا. إلا أن القتال شرف يختص به الرجل الحر. نجد ذلك فى بلاد الغال ومملكة الفرنجة وفى إيطاليا اللمباردية حيث الأرمانى Arimanni - وهم الرجال الأحرار - محاربون من الطراز الأول. كذلك فى أسبانيا تحت حكم القوط الغربيين - على الأقل حتى القرن الثامن؛ وفى بلاد الإنجليز السكسون حتى القرن السابع.

هذا المبدأ الجرمانى فى الخدمة العسكرية الإجبارية لم يلبث أن أخذت به الشعوب القديمة عندما امتدت إليها سيطرة زعماء البرابرة. فمنذ عهد أبناء كلوفيس، كان على أهل الغال والرومانيين الأحرار أن يحملوا السلاح. فيصور لنا جريجوار دى تور G, de Tours الحرب بين قبائل مانسو وتورنجه - وغزو الأنجوفيين لسانتونج. إذ كانت الجيوش الفرنسية الأولى (منذ أسرة ميروفيج Mérovée) تتكون فى أساسها من الرومانيين وسكان الغال الذين كانوا يقتالون بعضهم بعضاً لصالح الحكام البرابرة. وهو انقلاب حربى عجيب لهؤلاء الناس الذين - منذ قرنين سابقين - قد فروا جميعاً هاربين من حرفة السلاح فى خدمة الأباطرة الرومان.

فباستثناء إيطاليا فى عهد القوط الشرقيين، وإفريقيا الفندالية التى احتفظ فيها تيودوريك وجنسريك للألمان الغزاة بوظائف عسكرية قليلة جداً - باستثناء هاتين، عرفت معظم ممالك البرابرة خلال فترة من التاريخ مثل هذه الظاهرة.

إلا أن تطوراً فى الاتجاه المضاد قد ظهر مبكراً جداً . فإنه فى البلاد الأنجلوسكسونية ـ ابتداء من القرن الثامن ـ قدر أنه للقيام بالتجهيز الحربى قياماً صحيحاً لابد من امتلاك خمس وحدات من الأراضى الزراعية ، وفى أسبانيا أجبر ملك القوط الغربيين وامبا Wamba الملاك العقاريين على أن يسلح كل منهم عشر ما لديه من عبيد ، مما يدل على أن الرجال الأحرار ـ قانوناً أو بصفة غير قانونية ـ قد كفوا عن القتال . وفى بلاد الغال ظلت خدمة السلاح كمبدأ فرضاً على الجميع حتى القرن التاسع ، إلا أن الخدمة العسكرية للفرنجة لم تشمل فى الواقع إلا الأغنياء .

لم إذن هذا التحول؟ السبب الأساسى أن فترة هذين القرنين (من السابع إلى التاسع) قد شهدت التأرجح فى ميدان القتال بين المشاة والفروسية . وطالما نظر إلى هذه الثورة الشاملة فى فن الحرب على أنها نتيجة لغزوات العرب . فقد كاد شارل مارتل Ch. Martel يحول جنود مشاته من الفرنجة إلى فرسان لكى يناهض خيالة المسلمين . وفى سنة ٨٥٥ أخر بيبان Pepin نداء الجندية شهرين عن موعده المحدد له دائماً ـ وهو مارس ـ شهر إله الحرب (فأصبحت ساحة مارس ساحة مايو) وذلك حتى يتم إعداد العلف اللازم لجيش كله من الفرسان . فالظاهرة إذن حقيقية ، ولكنها ترمز إلى نهاية تطور بدأ منذ قرون كثيرة .

إنها سلسلة اختراعات فنية ، يستوى فى مجالها البارود وحشو المدافع أو القنبلة الذرية التى هى فى أصل هذا التحول . لقد جهل العالم القديم دائماً (حدوة) الخيل ، والسرج ، والركاب ، هذه التحسينات الثلاثة ـ التى سوف تهب الدابة قدما راسخاً ، والفارس ثباتاً أعظم ـ قد عرفها عالم البحر المتوسط الشرقى منذ القرن الرابع . والقوط الشرقيون فى أوكرانيا والبرابرة سكان

القوقاز هم الذين وقفوا على أسرار صقالبة بحر الخزر أو شعوب آسيا الوسطى من القبائل الرحل، ونقلوها بدورهم إلى شعوب الغرب . فمنذ القرن السابع زاد استعمال الخيل فى جيوش الغرب أكثر فأكثر .

واستعمال الخيل يضع مشكلة خطيرة . ذلك أن امتلاك إحدى دواب الحرب ودوام تجهيزها التجهيز الكامل يكلف غاليا . وليس أمام الرئيس الذى يعنيه أن يكون له جيش من الفرسان إلا إحدى اثنتين : فهو إما أن يدعو الأغنياء ، أو أن يهب الآخرين الوسائل التى يواجهون بها هذه النفقات . ولكن لما كانت موارده ليست بالتى لاتنفد ، فقد كان عليه أن يختار .

إلا أنه إذا رجعنا إلى ماضى جرمانيا ، وإلى التقاليد الرومانية القديمة ، لوجدنا جماعات من الناس غايتها مؤازرة جهود الرئيس . هؤلاء هم المحاربون الأحرار buccelarii الذين عرفتهم القرون الأخيرة لروما ، والرفاق Gisind الذين وصفهم تاسيت Tacite بأنهم يلحقون بالعظيم ويتبعونه فى المعمعة ويتلقون منه الهدايا والغنائم وحسن الرعاية . هذان النظامان القديمان (المحاربون الاحرار والرفاق) يتجددان فى صورة « عصبة شرف truste » للملوك الفرنجة الميروفيج مما كان سبب قوة كلوفيس .

فالفرسان الأول سيكونون من بين هؤلاء ؛ يضاف إليهم الأغنياء القادرون على التجهيز على نفقتهم . وغالبا ما يقتضون هم أيضا مقابلا لخدمتهم . ومن ثم لن يكون جيش الفرسان قط كبير العدد . ومنذ ذلك الحين لن تكون المسالة مسألة تجنيد كافة الرجال الأحرار ؛ فالجندى الآن هو « رجل » سيده وزعيمه ، يرتبط معه إما برباط من « العصبة » أو بما

ينتظر منه من عطاء . وهذا هو الفَـصَـل Vassal[١] الذى يعلن نفسه محاربا محترفا ، أو جنديا حرا .

وما يحدث فى الغال ـ حيث تقوم قوة ملوك الميروفيج على ما لهم من الأتباع Les fidèles ـ نجد مثله فى أسبانيا فى القرن السابع ، وفى إيطاليا اللمباردية فى نفس العصر . وهو نظام يحمل فى طياته حتفه ، فإن الملوك يجرون أنفسهم إلى الخراب بما يدفعون من الأراضى نظير إخلاص أتباعهم الدائم التذبذب ، كما أن التبـاس « الخدمة العامة » و « الخدمة الخاصة » سيؤدى سريعا إلى النهاية المحزنة لهذه الأسر المـالـكة .

إلا أن الملوك من الجنس الجديد ، ابتداء من بيبان لوبريف Pépin le Bref (٧٥١ – ٧٦٨) يطمحون إلى تجديد التقاليد الرومانية . ألم يعلن شرلمـان نفسه إمبراطور الغرب ؟ وفى المجال العسكرى كانت رغبتهم تنحصر فى إعادة حشد القوة العامة التى ساهموا هم مع « الزعماء » فى تحطيمها . فلا تلبث تقاليد « الخدمة العسكرية الإجبارية » لـكل رجل حر أن تتأكد من جديد فى أوامر شرلـمـان . إلا أن الحملات الحربية تكلف الـكثير وتستمر على الأكثر ثلاثة شهور (من مايو ـ الوقت الذى يكثر فيه العلف ـ إلى بداية

---

(١) نظام التبعية الاقطاعية Vassalité أحد المقومات الرئيسية لعصر الأقطاع ، ومن الخصائص التى انتقلت بلفظها ومعناها إلى الأقطار المجاورة أيام الحروب الصليبية . ذكر الدكتور زيادة قول النويرى (نهاية الأرب جـ ٨ ص ٢٦١) أن كلمة الفصل Vassal فى المصطلح الصليبى — ومعناها التابع الإقطاعى — قد استمر استعمالها فى البلاد الساحلية التى ارتجعت من أيدى الفرنجة جريا على عادتهم كما نقل الصليبيون نظام الحسبة عن المسلمين فى مراقبة الأسواق والقضاء فى مجلس الحـكم . واستعمل بناء على ذلك كلمة فصل للمفرد وأفصال للجمع قائلا : إن المجتمع الاقطاعى فى عصر تمامه أشبه فى بنائه شكلا هرميا رأسه الملك أو الأمبراطور ، وتحت ذلك طبقة كبار الأفصال ؛ يليهم صغارهم ، ثم يلى هؤلاء من هم أصغر منهم وهلم جرا .

(انظر الاقطاع والعصور الوسطى تأليف كوبلاند وترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة صفحة (و ـ المقدمة) وص ١٦ .

أغسطس ـ فترة الحصاد ثم جنى الكروم) فلم يكن يدعى للقتال إلا من يمتلكون أربع وحدات من الأرض (مساحتها من ١٠ إلى ١٥ هكتارا) وفوق هذا لم يكن الرجال يعبئون إلا من المناطق المجاورة لميدان القتال ـ فكانت الخدمة العسكرية فى نفس الوقت بكتائب مئوية كما كانت محلية . أما التعبئة العامة Lautweri فكان يمكن أن تحدث فى حالة الغزو . والواقع أنها لم تحدث أبدا .

على أن ملوك أسرة شرلمان قد خدعوا فى ظنهم إمكان الرجوع إلى النظام الرومانى . فإن شبكة الروابط الشخصية هى من القوة ، والنظام هو من التشبث بالتقاليد والعادات ، بحيث أن الذين سيخلفون بيبان سيفكرون ـ كما فكر من قبل ملوك القوط الغربيين فى أسبانيا ـ فى أن يستفيدوا فى أواخر عهد الدولة بدرجات الخضوع والامتثال ـ كل لما فوقه ـ التى سبق أن أقاموها . وهذا أمر صدر فى سنة ٨١٠ يقول : « ليزاول كل رئيس على من دونه تأثيرا فلبيا حتى يطيع هؤلاء أكثر فأكثر ـ وبقلب راض ـ أوامر ومبادىء الامبراطور » . والزعيم Le Grand ـ الذى كان قد أصبح يسمى الشريف Seigneur ـ يأتى إذن إلى المعركة على رأس أتباعه ، وهو الذى يصدر إليهم الأوامر ، ولكنه مسئول أيضاً عن خضوعهم لنداء الامبراطور . ولكى يزيد هذا فى جيشه ، يكثر من العطاءات التى تضاعف له الرجال . لذلك يمكن القول أن جنود أسرة شرلمان جنود أحرار .

وقد سار انحلال هذه الأسرة جنبا إلى جنب مع زوال الخدمة الإجبارية فإن « الزعماء » يظاهرهم رجالهم المسلحون قد عرفوا سريعا كيف يوجهون ضرباتهم للضعاف من خلفاء شرلمان . وستختفى الخدمة الإجبارية لبضع قرون فى الغرب . ولكنها لن تعدم أن تترك ذكرى باقية هى : الضريبة ،

فهى إن نسيت منذ عهد أسرة ميروفيج ، سوف تبعث من جديد فى صورة « بدلية heerban » أى الأتاوة المفروضة على هؤلاء الذين يهربون من خدمة السلاح . وسوف تستحيل إلى ضريبة عامة فى عهد فيليب أغسطس.

(ب) من القرن العاشر إلى الثاني عشر

مجتمع مسلح : الإقطاع

تأرجحت الأحوال العسكرية إذن حتى القرن العاشر بين نوعين من الجنود : جندى الدولة de l'Etat والجندى الحر privé . إلا أنه منذ الانتصار الثانى كان هذا الانتصار بداية إحدى مراحل تاريخ الانسان ونعنى به عالم الإقطاع .

وبيئة هذا العصر تجعل المحارب فى المقام الأول . فأى عصر فولاذى كهذا القرن العاشر الملىء كله بقعقعة السلاح ! فيه عاشت أوربا فريسة حروب داخلية وغزوات فى حالة حرب دائمة .

كانت الحروب الداخلية معارك بين الزعماء Les Grands يثقل وطأتها ويطيل أمدها الالتزام بالثأر Vendetta . فالحق أن الانتقام الخاص قد اكتسح العصور الوسطى صادرا عن نظام (الفيد Faide) الاقطاعى وهو انتقام الأقارب ، كما جاء فى القانون الجرمانى القديم . فقد تغنى مؤرخو نورماندیا فى القرن الثانى عشر – بلهجة أشعار الملاحم – بهذه « العداوة الخالدة » التى كانت مستعرة بين الجيروا Girois وقبيلة تلفاس Les Talvas . ونحن ندرك فى يسر تعكير الصفو الذى لا بد أن يجلبه فى مجتمع كهذا كله مسلح « الالتزام الأدبى » بالثأر .

وعدا هذا التعكير تزيد الطين بلة غزوات البرابرة الأخيرة ، غزوات

المنغاريين والنورماديين والعرب . فمن الشرق والشمال والجنوب ، تدفقت هذه الغزوات تجاه أوربا ، تاركة من خلفها فى كل مكان الخراب والدمار .

فى هذا الجو من العراك والقتال تتجمد القلوب وتتحجر . فتحبب الحرب لما تثيره من انفعالات قوية ، وما تتطلبه من عنف جسمانى . وما أكثر الأغانى من هذا النوع التى تمجد الحرب . كما أن الحرب بالنسبة للشريف أيضا ضرورة اقتصادية . فالقتال معناه الأخذ بنصيب من أسلاب الزعماء المتحاربين . فضلا عما فى ذلك من التأكد من القدرة على امتشاق الحسام ، وما فيه فى نفس الوقت من القضاء على حياة الحصون القائمة المملة . إن شن الحرب فى نظر رجل القرن العاشر هو الحياة الحقة ، ومن كل هذا ستنشأ حروب الإقطاع ـ وهى أيضا « حروب خاصة » .

فى هذه البوتقة التى تغلى تنصهر الأطر القديمة ، وينشأ مجتمع جديد تسيطر عليه فكرة المحارب . إلا أن المحارب الممتاز الآن هو ممتطى الجواد . ونظام الرتب العسكرية الذى ينشأ فيه الدليل على تميز الفارس . لقد رأينا بدايات هذا التحول ، إلا أن نهاية التطور هى القرن العاشر . فالفرنجة يقاتلون ركبانا منذ القرن الثامن . ويقول المؤرخ : إنه فى معركة سنتال Süntal الفاشلة سنة ٧٨٢ فرت فرق شارلمان التى سحقها السكسونيون « بكل ما تستطيع الخيل من سرعة » . ولقد اضطر السكسونيون وأهل ثورنجه ـ الذين ظلوا مشاة حتى مطلع القرن العاشر ـ إلى أن يغيروا طريقتهم فى الحرب لكى يقفوا فى وجه المنغاريين . كما كان النصر النهائى الذى أحرزه أطن Otton على شواطىء ليخ Lech فى ١٠ أغسطس سنة ٩٥٥ خاتمة معركة فرسان فقط .

بل إن النورمانديين أنفسهم ـ وهم ملاحون من الطراز الأول ـ قد تحولوا إلى فرسان لكى ينتزعوا الغلبة على العدو . وفى سنة ٨٦٤ حينما تركت كتائبهم سفنها فى شارنته ، اندفعت إلى الداخل حتى كليرمون فى أوفرنى Auvergne واستولت على المكان . وفى نفس الوقت ، ولكى يقاتلوا قبائل بحر الخزر وقبائل بتشينج Petchenègues وبولوفتس Polovtses الرحل فى مراعى الاستبس ، اضطر أمراء فاريج Varègues مؤسسو روسيا الأوكرانية (وعاصمتها كييف Kiev) أن يرفعوا مشاتهم على ظهور الجياد .

ففى القرن العاشر تتحقق المعادلة : مقاتل = فارس ، حتى إنه فى لاتينية هذا العصر كلمة محارب Miles ليس معناها جندى ، بل فارس . والمحارب الراكب يجب أن يكون قادرا ـ إلى جانب امتلاك دابته ـ على أن يجهز نفسه كلية . هذا العبء لم يكن يقوى عليه إلا أغنياء الملاك الذين أصبحوا كلهم « أشراف » ذلك العصر ، أو الأفصال الذين كانوا يتلقون من سيدهم الأرض اللازمة لتغطية نفقاتهم . فتصبح المعادلة إذن ثلاثية : مقاتل = فارس Cavalier = المنعم عليه Chevalier ـ والمنعم عليه هو « الفصل » الذى يدين بالخدمة العسكرية ـ هذه الخدمة التى لم تعد تتصور إلا فروسية .

ومن ناحية أخرى فإنه فى هذا القرن الذى أصبحت فيه الحرب شيئا عاديا ، نجد أن هذا الفصل المنعم عليه يمثل القوة بأجلى معانيها . إذ ترتبط فكرة التفوق بهذه الحالة الاجتماعية ، فتنشأ المعا كثر تركيبا : مقاتل = فارس = منعم عليه = أحد النبلاء . فالمقطع أرضا نظير قيامه بالتزامه الخدمة العسكرية كفارس لن يلبث أن يشتهر بالنبالة والشرف .

بل إن طريقة هذا التطور ذاتها تصورها حفلة الكسوة Adoubement

التي هي بمثابة تعميد المحارب ورسامته والتي مازالت مثقلة بالسحر ، كالضرب باليد الذى ينشىء الصلة بين الكاسى والمكتسى . هؤلاء إذن هم خلف أولئك الجرمان أو الفرنجة والرومان الذين كان كلهم من الناحية النظرية جنودا - وقد قنعوا بأن تتكون منهم جماعة مقفلة من المدربين ؛ هم الذين يدعون وحدهم إلى حمل السلاح . إن الفروسية تبدو بهذا وكأنها آخر مرحلة من مراحل التطور التى استبدلت تدريجيا بجندى الدولة المحاربين المحترفين .

ونظام الأفصال Vassalité هذا الذى هو أساس المجتمع الجديد هو ارتباط شخصى بين رجل ورجل - فهو يبدو بطبيعته راجعاً إلى الزمالة الجرمانية Compagnonnage . إلا أنه عند انحلال دولة الفرنجة بعد حكم الميروفيج تزيد القيمة النسبية للمحارب ، ويأتى لفظ « فصل » الذى كثيرا ما تدنس بطابع الدناءة فى أصوله - ليدل على الصورة التى لاتدانيها صورة فى تبعية الرجل للرجل : تلك التبعية subordination التى قوامها أن يخدم بأحسن الأسلحة وأرقاها السيد الذى أعطاه « كلمه شرف » أن يكون فى خدمته .

فالفصالة ذات أساس حربى . والقوانين اللاتينية فى القرن التاسع تذكر فى غير تمييز كلمات vassus و vassalus و miles . والنصوص الفرنسية ذاتها منذ أول ظهورها ستترجم الكلمات الثلاث بلفظ المنعم عليه أو المقطع أرضاً نظير تعهده بالخدمة العسكرية Chevalier . والعلاقة بين « الفصل » وولى النعم suzerain تنشأ من الاعتراف بالأيادى هذا الاعتراف الذى يستتبع واجبات محددة . ففى البدء عندما كانت الفصاله لاتزال مطبوعة بطابعها كعمل حر كان التابع يقسم اليمين على أن « يخدم » المولى فى كل مايعهد به إليه من مهام . إلا

أنه كلما ارتفعت مرتبة « الفصل » فى درجات السلم الاجتماعى لايستطيع بعد أن يعترف بما يمكن أن يكون فى نظره عبودية .

فالاستعانة بالأفصال إذن سوف يجرى قصرها على عدد بعينه من الواجبات:المعونة الماليه لافتداء المولىإذا أخذ ولتسليح ابنه الأكبربالانعام عليه أو تزويج ابنته الكبرى . عدا مساعدة ولى النعم فى مجالس بلاطه التى كانت فى نفس الوقت محاكم ومجالس سياسية . وأولا وقبل كل شىء ـ المعونة الحربية . وعلى الفصل أن يقوم بنفسه بالخدمة كفارس ، وبكامل معداته الحربية. وفوق هذا يجب أن يقوم بالحراسة فى قصر الولى خلال وقت معين.

وفى مقابل هذا للفصل على ولى النعم الحماية والعطاء . خصوصاً العطاء الجزيل الذى يتمثل فى أرض يحوزها بما يسمح بتغطية نفقات خدمته والتى تسمى الإقطاعية ، هذه إذن هى ـ كمبدأ ـ مكافأة المنعم عليه ؛ وهى أيضاً صميم النظام الإقطاعى .

إلا أن توسع نظام الإقطاع سوف يؤدى إلى تطور شامل . فالأرض أقل سيولة بكثير من النقود . وقد هلك ملوك أسرة شارلمان لما وزعوا أراضيهم كى يجعلوا منها إقطاعات ؛ لأنهم كانوا فى حاجة إلى الافصال المنعم عليهم . وهذا مافعله الكثيرون غيرهم من أرباب النعم ،فهم لكى يزيدوا من قواتهم المؤقتة يخربون بيوتهم ويحطمون مستقبلهم . ومن ناحية أخرى ، فنى قرون كهذه حيث الاقتصاد الطبيعى هو السائد ، الأرض هى المصدر الوحيد تقريباً للثروات والقوة ، ولن يكون للفصل من رغبة إلا أن ينقل إقطاعيته إلى ورثته . إلا أنه بتوارث الإقطاعية يتزايد استقلال « الفصل » ونفوذه ، وإذا ما أصبح نبيلا ، بل وأحيانا نبيلاقوياً جداً ، فإنه تكون له ـ حتى إذا صرفنا النظر عن البلانتيجنية Les Plantagenets أفصال ملوك

فرنسا من الطبقة الثالثة (الكابتيان Les Capetiens)ـ نقول : تكون له حريات يواجه بها التزامات موقفه ، وأخصها بالذكر استبداله بالقيام بالخدمة العسكرية دفع مبلغ من النقود ! أليست مسألة الاستبدال هذه شيئاً لامفر منه إذا كانت الأرض مقطعة لهيئة من الهيئات الدينية ؟

وهكذا فى حوالى القرن الثانى عشر تتكاثر « ضريبة المعسكر » أو « ثمن خدمة الميدان » Taille de l'ost التى ليست إلا ثمن الافتداء من الإلتزامات الحربية . وهذه نقطة البداية فى تطور سوف يجعل من « الفصل » محترفاً أو مرتزقاً وسوف تستفيد الملكية المطلقة من هذا الوضع . إذ أنها سوف ترى فيه ظرفاً مناسباً لإرجاع مبدأ الخدمة العسكرية العامة ـ عند تعقد العلاقات بين الرجل والرجل .

٢ — جيوش الدور الأول من العصر الوسيط

إن التطور الذى أتينا على بحثه ليس صحيحاً بالنسبة لجميع البلاد ، كما أنه لايحمل حتى فى مجموع البلاد ذاتها التى عرفته طابع التعاصر الزمنى . فنى جميع فترات الدور الأول من العصر الوسيط قد وجدت جنباً إلى جنب « الجيوش الوطنية » للشعوب المسلحة من الفرنجة والهنغاريين والنورمانديين ، وجيوش إمبراطوريات ، شارلمان ، والعرب ، والبيزنطيين ، وهى الجيوش الإقطاعية بالمعنى الصحيح .

(١) الجيوش الوطنية :

إن كل رجل حر لدى الفرنجة فهو جندى . ونواة الجيش إنما تتمثل فى « العصابات » التى تتجمع حول « الزعماء » . وقوة جيش ملك مثل تورناى

هى التى جعلت منه ملك الفرنجة ، كلوفيس . يضاف إلى هؤلاء Tournai المحاربون الألمان ، هذا بينما الدفاع عن الحدود الشرقية ضد السلاف يتولاه السكسون وقبائل ثورنجه .

وقلب الجيش إنما يتكون من المشاة - وآخر المشاة الممتازين هم رجال الدور الأول من العصر الوسيط . وسلاحهم السيف والحراب angon ذات الطرف المنحنى على شكل كماشة ، وبلطة الفرنجة التى كان يمكن استعمالها سلاح رمى . والزعماء وحدهم هم الذين يحملون الرماح . أما أسلحة الدفاع فمختصرة : الخوذة نادرة . والجزء الأكبر من الجسم مكشوف ، يحميه المجن فقط . والفرسان عددهم قليل وغالباً ما كان الزعماء وحدهم هم الذين يقاتلون راكبين .

وقد بقى « تكتيك » الفرنجة أولياً . فالجيش ينتظم فى صفوف عميقة تحمل على العدو « بخطوة سريعة » رامية العدد بالمزاريق وبلط الفرنجة المستديرة أو الحربة ثم تتحول المعركة إلى سلسلة من الاشتباكات الفردية . والأرقام دائماً متواضعة ، لأنهم إنما كانوا يجيبون بالرجال من المناطق المجاورة لميدان العملية الحربية المستقبل . ويأتى الرجال يقودهم الكونت الذى قام فى كل بلد بتعبئة رجاله . وفى النصف الثانى من القرن السادس ، نرى الدوق يستند إلى عدة كونتات Comtes . ولقد كانت أقوى جيوش الموروفيج بلاشك هى الجيوش التى قامت بحملات إيطاليا ، ولا يبدو أنها قد تجاوزت عشرة آلاف رجل لأنه كان من الصعب فى ذلك العهد تنظيم إمداد كتل بشرية كبيرة .

ولقد كانت قيمة الآلة الحربية المخترعة حينئذ يبدو أنها تافهة . فجيوش الفرنجة كانت غير منتظمة ، كما كانت كثيرة السلب مثيرة للمخاوف والرعب

فقد لقن جريجوار دى تور زعماءه هذا الرد على الملك كونتران Contran الذى كان ينعى عليهم فشل حملة سبتمانيا (٥٨٦) : « لا أحد يخشى الملك ، ولا أحد يحترم الدوق أو الكونت ، وإذا أراد أحد أن يوجه اللوم أو يعاقب لمصلحة الملك ، فالتمرد والعصيان فى الحال ، وبداية الانتقاض ، والانقلاب على الرؤساء بنوازع تهديدية يضطرون معها إلى الفرار لينجوا من شرهم » .

أما الهنغاريون فيمثلون نموذج « الشعب المسلح » بالذات . فعلى ظهور الجياد تنقضى حياة كافة الرجال الأحرار . كما ظن بقبائل الهون (الهياطلة Huns) قديماً أنهم « كأنما ولدوا على صهواتها » . فهم إنما تكونهم الحرب بحكم نوع الحياة ذاتها التى يحيونها . ولما كانوا فرساناً محنكين ، فهم يستعملون تكتيك الكر والفر الأسيوى الخالد . وسلاحهم الرئيسى القوس . ولكى يتجنبوا مواجهة الجيوش المنظمة — التى غلبوها مع هذا مرات عديدة — كانوا ينفذون بسرعة إلى داخل البلاد مندفعين فى وادى الرون فبفاريا وسهل البو بعد أن تتدفق خلال سلسلة جبال الألب .

كانوا ينقضون إذن على القرى والأديرة ، فيسلبون ويحرقون ويأخذون أسرى يختارونهم بعناية من بين الشابات والأطفال بينما يعملون فى بقية الشعب حد الحسام . ومع هذا فانهم — إذا إقتضى الأمر — كانوا تحت ضربات السياط من جانب زعمائهم — يجابهون المعارك ، حيث يبدون مقاتلين يخشى بأسهم . ولما كانت لهم جاسوسيتهم التى تحسن إرشادهم ، فقد كانوا يحاولون أن يباغتوا جيش العدو ، ويسحقوه تحت وابل من سهامهم ثم يفرون بأسرع ما تستطيع جيادهم . لقد كانوا يعرفون كيف يقومون بهجوم جانبى ، وكانوا ذوى بأس فى تتبع العدو ، وموهوبين جدا فى الانسحاب من المواقف الدقيقة ، قادرين على عبور الأنهار فى مراكب من الجلود أو الخشب . وقلما كانوا يهاجمون الحصون ، لأنهم فى بداية غزواتهم قد أخفقوا أمام كييف ولم يستولوا قط على مدينة هامة فيما عدا بافيا .

ولقد كان انتظامهم من الناحية الاجتماعية فى عشائر فقبائل وقرى أساس نظم الجيش . ومنذ أن أقاموا فى شمال البحر الأسود ، اختار زعماء القرى « سيداً عظيما » grand seigneur (لقب أعطاه له مؤرخو الشرق والغرب) هو المعروف باسم أرباد Arpad الذى فرضت أسرته نفوذها فى النصف الثانى من القرن العاشر . وفى سنة ١٠٠١ أصبح الأربادى فايك Vaik (الذى عمدوه باسم اتيين Etienne) أول ملك لهنغاريا .

وأرقام الجيش الهنغارى غير معروفة . وتكثر المصادر اللاتينية من عدد العدو الذى كانوا ينزلون فى قلبه الرعب ، ففى معركة ليخ Lech (١٠ أغسطس سنة ٩٥٥) التى هى مع هذا نهاية غزواتهم الكبرى ؛ لابد أنهم لم يزيدوا على خمسة آلاف ، وجدير بالذكر مع هذا أن عصاباتهم كانت تتضخم أحيانا بما ينضم إليها من عناصر أجنبية . ففى سنة ٩١٥ انضم التشيك بقيادة الدوق بوليسلاف Boleslav إلى الهنغاريين وعبروا اجبال فشتل Fichtelgebrige حيث نشروا الرعب فى ثورنجه وصواب وسكسونيا .

ولم يعرف النورمانديون أول الأمر إلا على أنهم رجال البحر . وكانت سفنهم مراكب غير بيضاوية يبلغ طولها أكثر من عشرين متراً ، يمكن تحريكها بالمجداف أو الشراع وتحمل فى المتوسط من أربعين إلى ستين مقاتلا . وكان عليها أن تستعمل سرعتها فى غير عناء إلى حوالى عشر عقد . وكان معدل غوصها فى الماء الذى لايكاد يصل إلى متر واحد يسمح لها باجتياز الأنهار ، ولاشك أن كل الرجال الذين كانت تحملهم هذه المراكب ملاحون محنكون ومع ذلك فلانعدام الملاحين من الأعداء كلية فى الغرب ؛ كانت المعارك لاتقع إلا على البر .

ففى كل ربيع يتركون أراضى الضباب من بلادهم فى الشمال ـ وفيما بعد

أوكارهم الساحلية ـ تحت قيادة زعماء يختارونهم بحرية تامة . ولم تكن أرقامهم قط كبيرة جداً . ففى سنة ٨٤٥ صعدوا نهر السين بمائة وعشرين سفينة ، وفى ٨٦١ بمائتين . فإذا أدخلنا فى حسابنا الأشخاص اللازمين لحراسة الأسطول ، كنا بإزاء جيوش من ستة آلاف إلى عشرة آلاف على أكثر تقدير ، وهو ما يفسر فشلهم أمام باريس ذلك الحين ، المدينة الصغيرة التى لم تتجاوز الجزيرة Cité والتى لم تزد مساحتها حينئذ على ٩ هكتارات . ومع هذا فلتفوقهم على المغاربيين فى البحرية كانوا يعرفون كيف يهاجمون القلاع والحصون . فكولونيا ، وروين Rouen ، ونانت ، وأورليان ، وبوردو ، ولندن ، ويورك ، حتى قبل نهاية القرن التاسع ، قد سقطت أمام القوة الهائلة أو أسقطت على حين غرة .

وكان غرض غاراتهم الغزو ، وخطتهم فى ذلك (تكتيكهم) هى خطة الوعول والظباء : أن يهاجموا دون أن يهاجموا ، ويترقبوا فريستهم بصبر ، ثم يندفعوا على حين غفلة ويقضوا عليها بضربة واحدة . وهكذا كانوا يختارون بعناية دائماً نقطة البدء التى يتخذونها قاعدة يقيمون عليها معسكرهم الحصين ، وفى البدء كانوا يقاتلون راجلين فحسب ، ومحتمين لاشك احتماء القنفذ ، على عادة قدماء الجرمان ، لكى يقاوموا فرسان الفرنجة . ثم استعملوا الحصان فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع ، للتنقل أولا ، ثم للقتال بعد ذلك .

هـذا التكتيك الذى يلائم نوع سلاحهم (السيف المستقيم والبلطة الطويلة) هو الذى أكسبهم جدارتهم الحربية . إلا أن بأسهم كان شديداً أيضاً لأنهم محاربون بإيمان وبأخلاقية سامية . هؤلاء النورمانديون الذين دوخوا شعوب أوروبا الزراعية كانوا مغامرين قد تركوا ديارهم وراء الثأر وهجرة الضنك . لقد كانت الحرب بالنسبة لهم أكل العيش ، لهـذا رأيناهم

يصبحون مرتزقة ، وفى مطلع القرن التاسع استخدم ملك انجلترا إيتلرد Aethelred الدانيمركيين لكى يقمع بهم إخوانهم فى الجنس ، فلما خاب أمله فيهم وظهر عدم ولائهم قتلهم جميعاً فى يوم سان بريس (١٣ نوفمبر ١٠٠٢).

(ب) جيوش الامبراطوريات

بها تقوم حلقة الاتصال بين العالم القديم والعصر الوسيط . وطابع هذه الجيوش معروف لدينا : ففى المجتمع الذى يقوى فيه الشعور بالدولة ، يقع عبء الخدمة العسكرية الإجبارية على الجميع ، أما حيث تتسع الإمبراطوريات وتظهر ضرورة التسليح أو بالأحرى رغبة الرئيس فى أن تكون تحت يده أداة القوة – التى هى الجيش – فان الإجبار على الخدمة هذا يقتصر على جزء فقط من الرعايا .

إن ملوك أسرة شارلمان – وقد زهدوا فى المشاة – قد وضعوا القواعد الدقيقة لاختيار الفرسان ، فالفارس والسائس الذى يتبعه (والذى كان هو أيضا راكبا) وتسليحهما الكامل . . . كل ذلك لم يكن يطالب به إلا الذين يملكون اثنتى عشرة قطعة من الأرض (من ١٢٠ إلى ١٨٠ هكتارا) أما الآخرون فحسبهم دفع معونة يقدمونها للكونت ، وكان لابد من نصاب أربع إلى خمس قطع من الأرض (٤٠ إلى ٦٠ هكتارا) لكى يقبل من المرء أن يخدم بنفسه فى الفرسان . فى مثل هذه الظروف ، وإذا قدرنا استحالة جمع الرجال البعيدين جداً عن مسرح العملية الحربية ، لا عجب أن نجد الإحصاءات التى تقررت ضعيفة جداً . فقد قدر فرديناند لوت F. Lot أن مجموع إمبراطورية شارلمان لا يمكن أنها كانت تقوم فى الواقع إلا على أقل قليلا من خمسة آلاف فارس ثقيل ، وتفكك الامبراطورية بعد شارلمان هو الذى يفسر عجز الفرنجة عن مواجهة الجيوش النورماندية ، إذ كانت فى

معظم الأوقات أول من هذا العدد بكثير . ألسنا نرى أنه فى معركة بريسارت Brissarthe (فى سبتمبر ٨٦٦) قد هزم مركيز نوستريا Neustrie روبير ليفوز R.Le Fortوكونتا بواتو Poitou ومين Maine أمام جيش من أربعمائة فارس نورماندى ؟

والتسليح قوامه الرمح الطويل الذى يمكن استخدامه سلاح رمى . والسيف الطويل جداً المعلق فى غمده ابتغاء الوقاية ، والمجن المثلث الشكل والخوذة المشهورة باسم beaume المخروطية الشكل والتى لا حواف لها ، ودرعهم المشهور أيضا باسم broigne والذى هو سترة مقواة بحلقات وقطع من المعدن ، أو - فى الأيام الأخيرة - العباءة المقواة بهذه القطع . أما المشاة - الذين لا يقومون بحرب منتظمة - فليس لهم من سلاح إلا الرمح والقوس .

والجيش الذى هكذا تكوينه قيمته عادية ، وكثيراً ما كان الناس يعفون أنفسهم من الاستجابة لنداء الامبراطور مفضلين عليها دفع الغرامة (البدلية l'herban) حتى لا يقاتلوا ، لقد حارب شارلمان طول حياته ، فشن الغارات فى بلاد السكسون والسلاف والمغرب وبريطانيا ، وحاصر بعض القلاع ولكن لا معركة أبداً تقريباً ، والحقيقة أنه قضى ثلاثين سنة حتى أخضع بلاد السكسون على صغرها - علما بأن (جيوش الفرنجة لم تكن تقدر بكثير وأن قائدها لم يكن فيه من كبار القواد شىء) كما يقول لوت .

وظهر الإسلام(١) فى القرن السابع كأول قوة حربية فى ذلك العصر ، انحنت أمامها امبراطورية الروم Byzance التى كان قد دعمها هرقل . وجيش العرب هو قبل كل شىء جيش فرسان - ومع هذا وخلافا للفكرة الشائعة ،

---

(١) أنظر فى الجيوش الاسلامية التعليق الملحق بهذا الفصل .

ليس العرب متفوقين فى فن الركوب . حقا إنهم عرفوا حدوة الخيل، والسرج العالى ، والركاب ، إلا أنهم لايحسنون كبح جماحها ، ولهذا يكثرون استعمال المهماز . وسلاحهم بسيط : الرمح ، والقوس ، والمجن المستدير ، والخوذة ، والزرد .

وفى البدء كان الجيش يتكون فى أساسه من قبائل البدو ـ وهمها السلب والمغامرة ، وقد أكمل فيما بعد على أيام دولة العباسيين نقص العدد الظاهر فى هذه الجيوش برجال من الأكراد والترك . وهى عناصر مرتزقة أغدق عليها أمراء العرب العطاء ، وكذلك فان المشاة تظاهرها الخيالة كانت تتكون من أثيوبيين مسلحين بالقسى فحسب وقد وضعوا أنفسهم فى خدمة الخليفة ، ورغم هذا المددلم تكن الجيوش العربية قط كبيرة العدد جداً ففى ، ١٠ ديسمبر ٦٣٩ قام عمرو بغزو مصر بأقل من أربعة آلاف رجل .

وعلى أثر ذلك . وحين توقف الغزو ، لم يصبح العرب إلا أقلية ضئيلة العدد وسط الشعوب التى أخضعوها . فلكى يبقى الخليفة عمر (٦٣٤ — ٦٤٤) على سياسة التآلف قرر أن يترك الإدارات القائمة فى هذه البلاد كما هى ، وأن يقتصر على الإبقاء عليها فى ظل الاحتلال العسكرى . فكانت الأقاليم تحكم بقواد استطاعوا أن ينشئوا حقاً مدناً حصينة يستطيعون أن يتجنبوا بها تفرق القوات كالكوفة والبصرة فى العراق ثم الفسطاط فى مصر ..) .

هذا الجيش الذى تحول إلى جيش إمبراطورى ـ إنما نعرفه فى القرنين التاسع والعاشر من المراجع البيزنطية . فهؤلاء يصفون لنا الفرق العربية التى نجد فيها الخيل جنباً إلى جنب مع جمال النقل تعلوها البنود والأعلام . وخلال المعركة يثير العرب هذه الحيوانات بقرع الطبول ودقات الدفوف

ثم ينتظمون فى مربع طويل ويهجمون على العدو ـ بعد أن يكون المشاة الأثيوبيون قد أرسلوا وابلا من سهامهم.

والمحاربون العرب جنود أشداء لايخشون البرد أو المطر ، إلا أنه كان يحركهم أولا وقبل كل شىء الإيمان بالدين . ألم يبشر محمد (صلى الله عليه وسلم) بالجنـــة كل مؤمن يستشهد فى سبيل الله ؟ أليس هو النبى الذى جعل « الجهاد فى سبيل الله » فرضاً على كل مسلم ؟ فالعقيدة الدينية ـ التى لها فى النفوس المقام الأول ـ أولى من القوة الحربية ـ هى التى تفسر الفتوحات الخارقة للعادة التى قام بها المسلمون .

وفى بيزنطه إنما نجد التراث الرومانى . فتنظيم الجيش الجديد على يد الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) يفسر إلى حـــد كبير ما أصاب هرقل (٦١٠ - ٦٤١) من نجاح . ففى عهد هذا الرئيس تلمع الأسلحة الرومانية للمرة الأخيرة .

ومن الناحية النظرية يظل الالتزام بالخدمة العسكرية فرضاً على كل مواطن حتى سن الأربعين . أما فى الواقع ، فان المشتغلين من المتطوعين فيهم مايكفى وزيادة لأن الجندى يتقاضى راتبا من الذهب ـ وهو مالم يكن معروفا فى الغرب حتى ذلك الحين . وفوق هذا فهو يطعم ويكسى، والتسلح وحده هو الذى يجب عليه أن يقوم به : الراجل من المشاة رمحاه ، والراكب من الفرسان جواده .

ويشمل الجيش عناصر ثلاثة : الفرق العادية (asthene) وهم الأغلبية ويكونون المشاة الخفيفة ، والفرق الممتازة ، خصوصاً المتطوعون (Buccellaires) والجنود الأحرار من المشاة الثقيلة أو الفرسان ، ثم جنود الحلفاء (ethnikoi) الذين تقدمهم الشعوب التابعة والذين منهم تتكون الفرق

المتخصصة (رماة سهام ... الخ) والذين يظلون منتظمين تحت قيادة رئيسهم الوطنى .

وقوة الجيش إنما تقوم فى فرسانه ، وقد أخذوا عن الأسيويين منذ القرن الرابع حدوة الخيل ، والسرج العالى والركاب . فبعباءته الطويلة التى تتدلى حتى أخمص قدميه ، وخوذته المعدنية وغطاءى الركبة والساق وقفازيه يبشر الفارس البيزنطى فى القرن السادس بفارس الاقطاع فى القرن الثالث عشر . وهو يحمل من أسلحة الدفاع القوس والرمح . أما المشاة الثقال فمعهم الدرع والمجن الطويل يحتمون بهما . والسيف القصير وخصوصاً القوس كأسلحة هجوم . وليس للمشاة الخفاف إلا القوس والمقلاع .

وإلى جانب هذا توجد المدفعية ـ نواة عصب الجيش ـ التى سوف تصبح بعد بضع سنين ذات شهرة واسعة عن طريق استعمالها النار اليونانية feu gregeois التى اخترعها السورى كالينيكوس Callinikes . وقد أسماها البيزنطيون « النار البحرية » pur thalassion إذ يقذف المنجنيق أرضاً أنبوبة مخروطية الشكل ، تحتوى خليطاً من النفط والكبريت والراتنج كفيلة بأن تشتعل حتى فى الماء . هذا عدا فرق المهندسين يتبعهم الحمارون بالبلط وملاحو النقل على المراكب ، وقسم الامداد المنظم جداً ، وسلسلة تجهيزات حقيقية touldon ووحدة خدمات صحية ، وأخيرا فرقة إرشاد . . كل هذا سوف يجعل لهذا الجيش طابعاً من التنظيم الراقى .

وكانت درجات الجيش ورتبه رشيدة كذلك . فوحدة الإدارة والتكتيك هى الطاقم tagma للفرسان والعد arithmos للمشاة فى حدود ثلاثمائة رجل ومائتين وخمسين رجلا على الترتيب . والرئيس يسمى الأرخون L'arkhon أو التريبون tribun . وثلاثة أطقم يكونون الموارا moira . وثلاثة من

هذا يكونون الميروس meros . وثلاثة من الميروس تؤلف جيشاً قوياً Stratos من تسعة إلى عشرة آلاف رجل يرأسه القائد Stratége . فالجيش الكامل فرساناً ومشاة يضم إذن ١٨ ألف رجل . وكان للامبراطورية من هذا النوع جيشان : واحد فى أوربا والآخر فى آسيا ، تضاف إليها قوات الاحتلال فى إفريقيا وإيطاليا . هذه هى الإحصاءات النظرية التى تمثل الحد الأقصى . والواقع أن القائد بليراريوس (Belisaire) قد أعاد غزو إفريقيا بخمسة عشر ألف رجل منهم تسعة آلاف من الفرسان . ولم يستطع أحد ملوك أوربا ، فيما قبل القرن السادس عشر أن يتقدم إلى الميدان بمثل هذا العدد من الفرسان .

٣ — جيوش الإقطاع :

رأينا فيما مضى كيف نشأت هذه الجيوش . وعلينا أن نتناولها الآن فى القرن العاشر أو الحادى عشر لكى نتبين نظامها وأرقامها وخططها الحربية .

فجيوش الإقطاع هى فى أساسها جيوش خيالة ، إذ أن الدور الأول — الذى يفوق كل ما عداه تقريبا — سيظل يقوم به باستمرار لحتى منتصف القرن الرابع عشر المحارب على حصان (الفارس) .

ومع هذا فالمشاة باقية ، لكنها لا تقوم إلا بدور ثانوى ، دور مظاهرة الفرسان . وسوف يحرم عليها القيام بأية عمليات أثناء المعركة حتى القرن الخامس عشر . وفضلا عن هذا فأى احتقار لهؤلاء الراجلين أشد من احتقار الممتطين صهوة الجياد ، المزينين رؤوسهم بالخوذات الجميلة المزودة بوقاء الأنف ، والمغطاة جسومهم بالدثار (العباءة الطويلة تتدلى إلى أسفل الركبة) سلاحهم السيف الطويل المستقيم والرمح الثقيل (الذى يبلغ طوله مترين ونصفاً أو ثلاثة أمتار) والذى يشد إلى الركاب بحركة فيها كثير من العظمة ؟

وكل فارس يتبعه سائس أو اثنان على ظهر الخيل الاحتياطى . لمساعدته على الركوب نظراً إلى ثقل عتاده الكبير ، وليكونوا عونا له أثناء المعركة .

فبالنظر إلى هؤلاء « الرجال النبلاء » ، كانت قيمة المشاة Les pedones قليلة ، ومع هذا فقد وجدوا دائما . وهم فلاحون عبام من أراضيه الشريف، ثم فيما بعد أهل المدن les bourgeois من الأقاليم . وتسليحهم بدائى يثير الضحك : الرمح والبلطة ، والمقلاع والمنجل . ومكانتهم الحربية - كما أظهر كفاحهم ضد النورمانديين - تافهة ; حتى أنه ابتداء من القرن الثانى عشر تصبح الخدمة الإجبارية لهؤلاء المجندين محدودة بيوم الجمع للجهاد ، فلا يستخدم هؤلاء الجنود القرويون إلا فى عمليات البوليس المحلى ، وهذا هو أصل الفرق المحلية التى سوف تكف عن الوجود منذ مابعد حكم لويس الثانى عشر . إن المشاة لتختفى حتى حرب المائة عام .

والرتب العسكرية تختلط حينئذ بمراتب المجتمع الإقطاعى . فالزعيم Suzerain يأتى إلى الجيش محاطاً « برجاله » ، وهؤلاء يلتفون حول « رايته » وهو يأمرهم . إلا أن انتشار نظام «الافصال» يؤدى إلى درجات من الخضوع بعضها فوق بعض مما يثير بدوره مشكلة خطيرة . فباستثناء الدرجتين المتطرفتين من السلم ، الملك وهو الزعيم الأعلى ; ثم الجندى العادى vassus vassalorum الذى ليس تحت إمرته محارب آخر أدنى منه ، كل الدرجات الوسطى فى نفس الوقت زعماء وأفصال ; سادة وأتباع . والقسم بيمين الإقطاع يلزمهم بأن يكونوا عونا لزعمائهم بكل « مالديهم من قوة » . فهل كان يصحب كل منهم إذن إلى « ساحة » سيده الشريف كل مالديه من رجال ؟ لا مطلقا ، وإلا لكان العبء ثقيلا جدا . ويأتى العرف هنا ليصحح القانون - وهو عرف ليس مع هذا مكتوبا : إن كلا من الزعماء لا يأتى معه إلا بعدد محدود من تابعيه يسرى تحديده ذات

مرة على جميع المرات ويذكر مارك بلوخ M. Bloch مثال أسقف بايبه Bayeux فى آخر القرن الحادى عشر الذى كان يدين له بعض الزعماء المنعم عليهم بخدمة الحرب ـ أماهو فلم يكن يدين لرئيسه المباشر ـ الشريف ـ دوق نورماندى ـ إلا بعشرين رجلا مسلحين ، وأخيرا فإنه إذا طلب الدوق معونته للملك ـ الذى يعد الدوق نفسه من أفصاله ـ فلن يقدم الأسقف إلا عشرة رجال . فنحن هنا بإزاء تضاؤل فى الخدمة الإجبارية يزيد كلما ارتفعنا ، وهذا هو السبب الأكبر لقلة أرقام جيوش الإقطاع .

فالحق أن هذه الجيوش لم تكن قط كبيرة العدد . ولقد تفاوتت الأرقام فى الحروب الخاصة تفاوتا لاحدله ، ولكنها ظلت دائما ضعيفة ، ولا تتجاوز حدود المئات . وأكبر الجيوش تكوينا من رجال الإقطاع وحدهم ـ إذا استثنينا الفرق التى كان يعبئها الملك للدفاع عن حقوق الملكية ـ هو جيش الحرب الصليبية الأولى . وقد ثار الجدل طويلا حول أرقام هذه الأخيرة . فوصل لوت F. Lot إلى نتائج متواضعة بالنسبة لتقديرات المؤرخين الآخرين المبالغ فيها كثيرا . فى معركتى أنطاكية وعسقلان تراوح عدد الفرسان المقاتلين بين خمسمائة وألف ومائتين ـ أما عدد المشاة فيصل إلى تسعة آلاف . وفى القسطنطينية كان يمكن أن يصل عدد الجيوش الأربعة فى الحرب الصليبية الأولى على الأكثر إلى ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ فارس وعشرة آلاف راجل .

وكيف كان يمكن تجاوز هذه الأرقام حينئذ ، ودوق نورمانديا الذى هو أغنى وأقوى رؤساء الحرب الصليبية لا يملك فى بلاده أكثر من ستمائة فارس؟ ثم إن المال قد شح ، لأن أحداً من ملوك الغرب لم يساهم فى نفقات الحرب الصليبية . وهكذا رهن روبير كورت هيز R - Courte — Heuse إقطاعيته فى نورمانديا نظير عشرة آلاف مارك ، بينما باع جودفروى دى بويون G. de Bouillon أملاكه لكنيسة رنس Reims .

كذلك فإن جنود الفرنجة الذين وكل إليهم أمر الدفاع عن مملكة بيت المقدس وإمارات المقاطعات قد بدوا من الضعف بصورة تدعو للعجب . ففى سنة ١١٦٧ عندما هاجم شيركوه مصر ، اقتفى الملك أمورى أثره بثلثمائة وأربعة وسبعين فارساً عدا الفرسان من الوطنيين ، وفى معركة موبجيزار Mongisard (٢٥ نوفمبر سنة ١١٧٧ التى تعد أكبر انتصارات الفرنجة) كان تحت يد الملك الأبرص الصغير بودوان Baudoin خمسمائة فارس يشد أزرهم ثمانون من فرسان المعبدين (الداوية). فضعف الأرقام إنما هو السبب الأساسى فى فشل الفرنجة فى الشرق .

وتكتيك جيوش الإقطاع يسير جداً . والحرب الصليبية الأولى تقدم لنا منه أمثلة معروفة . فالمجاهدون عموماً يسعون دائماً إلى الهجوم ، وفعل الفرسان لا بد أن يكون سريعاً ، والمعارك إذن قصيرة . ومعركة مرج الصفر (١) هى وحدها التى استمرت من الساعة التاسعة صباحاً حتى حلول الليل . فالجنود ينتظمون صفوفاً بأمر من ساداتهم الأشراف ، ويختار قائد أعلى لكل معركة . إلا أن خطة العملية إنما يرسمها مجلس الأمراء .

والجيش مقسم إلى عدد بعينه من الفرق : من خمس إلى تسع حسب مختلف المعارك . وعدد رجال هذه الأقسام الفرعية مختلف أيضاً ، فهو ١١٦ رجلا فى معركة انطاكية و١٣٣ فى عسقلان و١٤٠ فى الرملة (١١٠٥). فهى تتجمع فى ثلاث كتل متدرجة كالسلم وتتقدم كل منها فى صفين وتتابع هجمات الفرسان بنظام كلما وجه إليها الأمر من القيادة — أمر « خافت »

---

(١) مرج الصفر معركة دارت بين السلطان الناصر محمد بن قلاون والتتار قرب دمشق (١٣٠٣ م) هزم فيها التتار للمرة الرابعة وصدتهم الجيوش المصرية عن وادى النيل (المراجع)

نوعاً — ثم ينتهى الهجوم بسلسلة من معارك الجماعات الصغيرة فضلا عن المعارك الفردية .

وإذا كانت الكتلتان الأوليان تقومان بالهجوم على جبهة القتال ، فان الكتلة الثالثة كانت تبقى تحت أمر الرئيس الأعلى ليستخدمها فى القيام بحركة التطويق ولتصد هجمات العدو المقابلة أو تقتفى أثره . وتقوم المشاة عموماً بدور سلبى : فهى لا تتحرك ، بل تنتظم صفوفاً أمام الفرسان ، وحسبها أن تمطر العدو بوابل من سهامها فى بداية المعركة . وفى حالة فشل الفرسان ، تفتح المشاة صفوفها ثم تقوى جبهتها ، وإذ تكبح جماح العدو بقذائفها فهى تسمح للراكبين (الفرسان) أن يصلحوا من شأنهم قبل أن يعاودوا الكرة . ومع هذا فإنه يجدر بالذكر الإشارة إلى تقدم بعينه للمشاة فى ميدان الشرق الأدنى هذا : فهى تقوم أكثر فاكثر بدور الظهير فى عمليات الفرسان .

وفى الغرب — كما فى سوريا — ظلت المعركة المنظمة استثناء حتى القرن الثانى عشر . وإنما يقوم جوهر حروب الإقطاع فى عمليات حصار القلاع أو الحصون . ففى فوضى العصور الأخيرة للامبراطورية السفلى ، قد أحاطت المدن Cités نفسها بمتاريس ليست مع هذا كافية لصد هجمات البرابرة ، وبعد كلوفيس سقطت الأسوار الرومانية أنقاضاً . وما أحرز النورمانديون من نجاح إنما يرجع فى جانب منه إلى هذا الوضع للأمور . ثم إن الأسوار تبنى من جديد منذ عهد شارل لوشوف Charles le Chauve فكافة مدائن القرن العاشر لها متاريس . الا أن هذه المدائن قليلة العدد ، ومتباعدة وصغيرة .

وكل اقطاعية شريف فى حاجة إلى قلعة خاصة ، والأصل أن تكون مخبأ فى حالة خطر الغزو ، ثم أصبحت بالتالى تجسيما لقوة الشريف . وكانت

الحصون أول الأمر من خشب ، فلما صارت هكذا صالحة لالتهام النيران استبدلت بالحصون الخشبية هذه منذ القرن الحادى عشر مبانى من الصخر. وفى فلسطين كما فى فرنسا كان دورها عظيما . فحصون الأورونت Oronte هى حصون الفرنجة على الشاطىء ، كما أن قلعة جايار Chateau Gaillard أعلى الأندلين Andelys هى مفتاح نورمانديا. إذ لاخطر فى ترك الأرض الخلاء للعدو ما دام المرء مسيطرا على القلاع والحصون.

ففن الحصار هو إذن أحد الأسرار الكبرى فى حرب الإقطاع . وفى فن الحصار هذا اتسعت حيلة رجال هذه القرون وزاد علمهم وجرأتهم . وخطواته معروفة تماماً : ضرب الحصار blocus ورمى القذائف بالمنجنيق أو آلة الرمى والهدم trebuchet وحفر الخنادق وما يقابلها تحت الجدران ، وقفز الأسوار . والتواريخ غاصة بهذه القصص المتشابهة دائما فى خطوطها العريضة والمختلفة كثيراً فى تفاصيلها ، الزاهية الألوان ، الغنية بمغامرات الحروب .

* * *

وثمة فى غمار هذه القرون حدث بارز فى المجال العسكرى : السيطرة التى لاتنكر للخيل . هذا الاحتكار تقريبا للفروسية هو الطابع الظاهر المشترك فى جيوش الدور الأول من العصر الوسيط على كثرتها واختلافها . وكما هو الحال فى العصر القديم تتغير صورة الجيش بتغير السلطة السياسية . وفيما بين محورى الحرب الخاصة وخدمة الدولة ، تتردد الخدمة الإجبارية ، مما يتخذ معه تطور الجيش خلال هذه السبعة القرون هيئة التركب من حركة تذبذبه بينهما . كما يسود طابع آخر إزاء انعدام سلطة الدولة ، هو التجمع حول القوى الحقيقية : قوة الزعماء .

الجيوش الاسلامية

العرب كالأقوام الرحالة محاربون . فالحرب عندهم جزء من النظام العادى فى معيشتهم . وقد اكتسبوا من حماستهم الدينية مزيدا موفوراً من روح القتال .

وفى بداية عهد الرسول ، كان كل من أسلم من العرب يدخل فى صفوف الجند الإسلامى . فعدد الجيش يومئذ هو عدد المسلمين بأسرهم .

والمهاجرون هم أول جنود المسلمين ، تقول بعض المصادر أن عددهم بلغ لما أسلم عمر بن الخطاب الأربعين فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالأنصار وصاروا جميعا جندا واحداً بقيادة النبى . وفى السنة الأولى للهجرة لم يزيدوا على بضع عشرات يقيمون فى المدينة . ثم ازدادوا فكان عددهم فى معركة بدر الكبرى (٣١٣) رجلا من المهاجرين والأنصار [1] ولم يكن فيهم غير فارسين أحدهما المقداد بن عمرو الكندى . وفى معركة أحد كان الجند سبعمائة وفيهم مائة دارع[2] ثم ازدادوا بمن اعتنق الإسلام من القبائل العربية .
واشترك فى حملة مؤتة ثلاثة آلاف مقاتل عربى وبلغ عددهم فى معركة تبوك آخر الغزوات فى صدر الإسلام ثلاثين ألفاً ومعهم عشرة آلاف فارس وقد عادت الحملة دون قتال .

ولقد كان معظم رجال وحدات الجيش المحارب من أهل الحديبية والطائف وغيرهما من القبائل العربية .

---

(١) السيرة الحلبية ج١ ص ٣٣٢ — يذكر أن عدد المقاتلين كان ٣٠٥ رجلا وخمسة أفراس

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير ج٢ ص ٥٧ . وفى السيرة الحلبية ج١ ص ٣٣٢ أنه كان مع هذا الجيش سبعون بعيرا .

وفى أيام الخلفاء الراشدين تزايد عدد الجيش بمن انضم إليه من قبائل الحجاز واليمن ونجد واليمامة ، وأصبحت قيادة الجيوش من وظائف الخليفة أسوة بما كان يفعله النبي محمد. وكانت العادة فى عصر الخلفاء الراشدين أن من تخلف عن تأدية الواجب الذى يكلف به يشهر به فى الناس ويعاقب أشد العقاب .

وقد بلغ عدد الجيش فى زمن عمر بن الخطاب زهاء مائة وخمسين ألفاً من المقاتلين نظموا فى وحدات . وجعل على كل منها أميرا من شجعان العرب وعلية القوم ومن ذوى التجربة والكفاءة وإصالة الرأى فى الأمور الحربية .وأنشأ لهم ديوانا(١) ينظر فى أمر تسجيل أسماء الجند وأعطياتهم وتموينهم . ولم يكن الرسول فى حاجة لتشكيل ديوان الجند . فقد كان الجند إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم . وإذا ورد إلى المدينة مالٌ من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم حسب مايراه الرسول(٢) وتضاعف عدد الجيش تبعا لتوسع الفتوح الإسلامية على أيام عمر وعثمان وامتدت الزحوف فى عهد عثمان وشملت أرمينية وبلاد القفقاس وفارس وخراسان وطبرستان وبلاد إفريقيا .

وفى أيام الأمويين بلغ عدد الجيش العربى فى معسكر البصرة والكوفة فقط ١٤٠,٠٠٠ مقاتل. أما فى معسكر الفسطاط فقد بلغ عدد المرابطين أربعين ألف مقاتل . وكان جند الشام نحو ذلك . هذا إلى جانب القوات المعسكرة فى واسط والموصل والقيروان وغير الذين عهد إليهم حماية الثغور (الحدود). ونستدل من بعض الجيوش التى جهزها الأمويون فى أوائل دولتهم أن عدد

---

(١) نعمان بن ثابت : الجندية فى الدولة العباسية ص ٨١ — ٨٥

(٢) الفخرى : الآداب السلطانية . ص ٥٨

الجند كان كبيراً. فإن يزيد بن المهلب عندما حمل على جرجان وطبرستان جرد إليهما ١٢٠,٠٠٠ من الجند المرتزقة أى ممن أدرجت أسماؤهم ورواتبهم فى ديوان الجند وذلك سوى الأتباع والمتطوعين الذين يجاهدون فى سبيل إعلاء كلمة الله.

ومن الصعب أن نقدر عدد الجيوش الإسلامية فى أوائل الدولة العباسية. ولكن المعروف أنها كانت كبيرة العدد. يدل على هذا أن حملة هارون الرشيد على هرقلة (١) سنة ١٩٠ هـ (٨٠٥/٨٠٦ م) بلغ عدد جنودها ١٣٥,٠٠٠ من المرتزقة يضاف إليهم عدد كبير من الأتباع والمتطوعين. بينما كان تحت قيادة داود بن عيسى أحد القادة العباسيين فى أرض الروم سبعون ألفاً من المقاتلين. وبلغ عدد الجند العباسيين بإمرة الخليفة المعتصم فى معركة عمورية مائتى ألف مقاتل.

نظام الخدمة العسكرية

رأينا ما كان عليه نظام المقاتلين فى عهد النبي. وفى خلافة أبى بكر استمر التطوع النظام الذى يسود المقاتلين. وكان المتطوعون لا يكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئا ويقنعون بما يصيبون من الغنائم. ذلك لأن المقاتلة لهم أربعة أخماس الغنيمة. ولقد كانت الغنائم فى العراق والشام مما يغرى المخلفين باللحاق بزملائهم.

وكان أبو بكر أول من اتخذ «بيت المال». وكان من إيراده يشترى

(١) مدينة بآسيا الصغرى كانت قاعدة مملكة الروم فى عهد الفتوح الإسلامية الأولى فتحها مسلمة بن عبد الملك عام ٨٩ هـ (٧٠٧/٧٠٨م) واسمها الآن اركلى.

الإبل والخيل والسلاح فيجعله فى سبيل الله . ويمكن القول بأن هذا المال كان أول ميزانية لديوان الجند . وأول من ولى بيت المال أبو عبيدة ابن الجراح .

وكان عمر بن الخطاب أول من أسس ديوان الجند فى المدينة عام ١٥ هـ ، أسسه ليجعل المسلمين كلهم جندا يدافعون عن الإسلام . وكان يسمى الديوان فقط(١) وكان الجند فى عهده ينقسمون إلى قسمين :

١ — الجند النظامى : وهؤلاء الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم .

٢ — المتطوعة : وهؤلاء الذين يشتركون فى الجيش وقت الحرب فقط ويسرحون فى السلم .

وقد حرم على الجند النظامى مزاولة الزرع وغيره بينما كان المتطوعة أحراراً فى المهن التى يزاولونها(٢). ولم يغفل ديوان الجند عن نساء وأولاد المقاتلين وهم فى الحملات العسكرية . فكان الجندى فى ساحة القتال لا يفتكر بأمر إعاشة الأفراد المسئول عنهم. إذ أن الرواتب والأقوات تدر عليهم كل شهر بطريقة منظمة.

وكان العطاء يتفاوت حسب أسبقية الدخول فى الإسلام . وأول من سوى بين الجنود فى العطاء على بن أبى طالب .

---

(١) الديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وكان يعمل أسماء المهاجرين والأنصار ومقدار أعطياتهم. وبتنظيم الجندية الإسلامية كان يدرج اسم الجندى واسم أبيه مع نسبه وسنه وقده ولونه وملامحه وسائر مايتميز به عن غيره لئلا تتفق الأسماء ويذكر اسم المقدم أو النقيب الذى سيعمل تحت إمرته .

(٢) نعمان بن ثابت : الجندية فى الدولة العباسية : ص ٨٩

وبعد سنوات نظم القبول للجندية وجعل لها شروط أهمها :

١ — البلوغ.

٢ — الإسلام.

٣— السلامة .

٤ — الإقدام .

وهذه الشروط الأربعة متفق عليها . أما الشرط الخامس فمختلف عليه وهو الحرية أى أن لا يكون المقاتل « مملوكا » تابعا لسيد .

نظام المعارك العربية الأولى

كانت المعارك كلها تبدأ على عادة العرب بالمبارزة . فيخرج بين الصفوف نفر من أى من الجمعين يطلبون أناسا للمبارزة. ويخرج لهم من الجمع الآخر عدد مساو لهم . وقد لا يرضون بهم فيطلبون بدلهم كما حدث يوم بدر عندما خرج من صفوف قريش عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد فخرج إليهم فتية من أهل المدينة فلما عرفهم عتبة قال : «مالنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا» ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فخرج إليهم حمزة ابن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن الحارث .

وفى كل من غزوات النبى نجد المسلمين يصطفون مع الصباح ويتهيئون للقتال : وكان النبى يقف بين المسلمين يعدل من صفوفهم . فإذا اشتد القتال بقى النبى وسط المعمعة محرضاً المؤمنين على القتال صائحاً بهم أن الجنة لمن أحسن البلاء منهم . وحين يشتد القتال ويندفع المسلمون بتحريض النبى نحو الموت لا يبالون به . . . كان النبى يقول « شدوا » . فيقتحم المسلمون خطوط المشركين .

الجيش على مر الحضارة الاسلامية

وقد قسم الخلفاء الأوائل الجيش إلى قلب وجناحين ومقدمة ومؤخرة . وظلت القبيلة العنصر الهام الذى تؤلف منه وحدات القتال . وكانت الخيالة فى الجناحين يستخدمون الرماح بينما كان يسلح المشاة بالقسى والسهام والسيوف واستعملوا الدروع فيما بعد .

وقد أفاد خلفاء بنى أمية كثيرا من نظم الحرب عند الروم والفرس . فجعلوا من خدمة الجيش حرفة وعملوا على توحيد صفوفه . ويمكن القول أنه فى أيام الخلافة العباسية تأثر الجيش بمؤثرات فارسية وتركية وابتعد عن الروح العربية البحتة ودعم صفوفه بالجند (المرتزقة) الأجانب من الشعوب غير العربيه التى اعتنقت الإسلام وصار الجيش « العربى » شبيهاً بالجيش الرومانى البريتورى . وفيما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر اضمحلت قوة الجيش المركزية وأصبح لكل ولاية إسلامية جيش خاص بالأمير .

وفى مصر كان للفاطميين قوات عسكرية منظمة ـ عناصرها القبائل الإفريقية التى وفدت مع القائد جوهر ـ قائد المعز لدين الله ـ صارت لها الكلمة الأولى فى الشرق الوسيط الإسلامى ، لكنها ضعفت أخيراً أمام التغلغل الصليبى فى سوريا . وذهبت قوتها فى الرياح عندما تدخل صلاح الدين الأيوبى الكردى الأصل . فمحا دولة الفواطم وشيد مكانها دولة لأسرته حاضرتها القاهرة .

وقد كان عماد جيش صلاح الدين روح الجهاد الفائقة أكثر من التنظيم الجيد . وامتاز هذا الجيش الإسلامى على الجيش الصليبى بتكتيكات الحصار

وباسلحتها الثقيلة كالدبابات والعراضات والمجانيق وبوسائل المواصلات السريعة (الحمام الزاجل) .

وقدأدى استخدام سلاطين هذه الأسرة العسكرية للماليك بين صفوف قواتهم الرئيسية إلى زيادة نفوذ هؤلاء وبالتدريج أصبحت لهم الكلمة العليا وتمت لهم السيادة فعلا وأسسوا فى مصر والشام دولة كبرى ظلت حوالى ثلاثة قرون. وكانوا يعتمدون على أسلوب الإقطاع فى جيوشهم[1] وقد ذاب هذا النظام أمام ما أدخله العثمانيون من تجديدات مستحدثة فى تنظيم وتدريب وتسليح جيوشهم الفنية فى أوائل القرن السادس عشر .

كان هذا فى الشرق الإسلامى . أما فى الغرب (أسبانيا) فقد كان النظام العربى العسكرى السائد منذ فتح تلك البلاد وزاد البربر ذلك النظام سطوة بفضل قوة شكيمتهم وروحهم العسكرية . ولكن مع مر الأعوام فقدالمسلمون روح الوحدة والتآلف وانقسموا فرقاً وشيعاً . فتدهورت دولتهم وتجزأت إمارات صغيرة وسرعان ما فقدت صلابتها أمام عناد الأسبان الأصليين الذين لم يتخلوا أبداً عن استعادة الوطن لأيديهم. ومع ذلك فقد برع المسلمون فى أسبانيا فى بناء القلاع والحصون على قمم الجبال والتلال لحماية الوديان والمضايق وأجادوا حروب الحصار واستخدموا البارود فى القرن الرابع عشر ولكنهم فقدوا الروح الهجومية وتمسكوا بمذهب الدفاع إلى أن طردهم الأسبان نهائيا من البلاد فى القرن السادس عشر[1] .

[عبد الرحمن زكى]

A. N. Poliak : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and (١)
De Lebanon 1250 — 1900. London 1930.

Qaincy Wright : A Stndy of War, vol I. page 590 (٢)

الفصل الثالث

الجيوش الملكية

من القرنين الثالث عشر إلى الثامن عشر

الجيش بالنسبة للملوك أداة قوة من الطراز الأول ، ومنذ أن استقرت عروش الملكيات ، والملوك يحتفظون لأنفسهم بحق استخدام هذه القوة . ففي كثير من البلاد نرى إذن أن الجيش ونفوذ الملك يتطوران جنبا إلى جنب وتقدم أحدهما يساند جهود الآخر وبالعكس ، وإن الاستمرار الطويل لملوك أسرة كابيت les capetiens في فرنسا ليسمح لنا بأن نتتبع خلال ثمانية من القرون هذا التطور . ولما كانت مثل هذه الملكية قد وجدت - مع فروق قليلة الأهمية - في الكثير من الدول القديمة ، فحسبنا أن نضيف إلى دراسة حالة فرنسا بعض نقط خاصة ببلاد أو عصور معينة .

١ — تطور الملكية في فرنسا

بدايات الجيش الملكي

القرنان الحادي عشر والثاني عشر :

لما تولى هيج كابيت Hugues Capet عرش فرنسا (٩٨٧) لم يكن إلا «زعيما» اختاره أنصاره ،وإن كان من الناحية النظرية ملكا - مادام مفروضاً أنه هو الذي خلف أسرة شارلمان ؛ فهو لم يكن في الحقيقة إلا ولي النعم

الأسمى suzerain suprême فى نظام التبعية La mouvance الفرنسى ، وليس الرئيس بحق إلا فى إقطاعياته الخاصة .

فالملك من أسرة كابيت لايستمد من صفته الملكية هذه أية قوة عسكرية . إذ أن مبدأ أن كل رجل من الفرنجة ملزم بخدمة السلاح ظل معترفاً به دائماً ولكنه فى الواقع لم يكن مطبقاً قط فيما بين سنتى ٩٨٧ و ١١٨٠ ؛ لأن الملكية لم تكن خلال هذه الفترة فى حرب مع أحد من جيرانها . ثم إن ضعف هذه الأسرة كان بحيث لايمكن أن يستطيع الملك من ملوكها أن يبسط نفوذه على كافة رعاياه إلا عن طريق الزعماء .

فسلطات الملك العسكرية إذن لها أصل مزدوج : صفته كشريف فى مقاطعته هو ، ورياسته لمراتب التبعية الإقطاعية فى فرنسا كلها . فهو فى مقاطعته يستطيع أن يدعو أفصاله وتابعيهم حتى الفلاحين أنفسهم . إلا أن هذا المجال ضئيل جداً . فى سنة ٩٨٧ لانجد إلا عصبة ضيقة من سنليس Senlis إلى أورليان Orleans ولكنها فى سنة ١١٨٠ تمتد حتى بورج Bourges وتغطى مساحة ثلاث مراكز أقاليم . يضاف إلى هؤلاء أيضا جنود بعض الأساقفة الأغنياء (رانس Reims وشالون سيرمارن Chalons sur Marne ولانجر Langres ولاءون Laon وبوفيه Beauvais) الذين من حقهم أن يكونوا لهم جنودا ، ولكن مجموع قواتهم تبقى تحت أمر الملك .

أما خارج أملاكه هو ، فليس إلا مقاطعات لايستطيع الملك أن يعبىء منها إلا عدداً بعينه من الفرسان Chevaliers يحدده يمين الولاء الإقطاعى أو تحدده التقاليد والعرف ؛ فهو مائتان فى نورمانديا ، وستون فى دوقية بورجونى Bourgogne وستون من كونت شامبانى ، وأربعون من بريتانى ، و ٤٢ من الفلاندر . . . الخ أى ما يساوى فى مجموعه أقل من ألف رجل مسلحين إذا سلمنا أنهم جميعاً سوف يستجيبون النداء .

وجملة القول أن الملك يعتمد بصفة أساسية على صغار أتباعه من الأفصال لكى يعدوه بالمنعم عليهم من الفرسان . أما المشاة الذين يجلبهم من أراضيه وحدها فهم لا يستخدمون إلا كرصيد احتياطى ، فالجيش ـ كالملكية ذاتها فى ذلك العصر ـ يتسم بطابع إقطاعى ملحوظ .

الجيش الملكى فى القرن الثالث عشر

وحرب المائة عام

مازال الجيش حتى عهد فيليب أوجست يحتفظ بأصله المزدوج . وقد عثر على وثيقة بتاريخ ١٢٠٤ « مهايا الشاويشية « La prisée des sergents » وفيها عدد الرجال المعبئين من أراضيه . هؤلاء الشاويشية هم عمال الملك فى أراضيه وهم يجندون من الكفور والقرى والأديرة ، وبلغ عددهم ٨٠٥٤ ومدة خدمتهم ثلاثة أشهر . وفى وسع الملك إذا أراد أن يطلب أن تدفع له هذه الجهات بدل هؤلاء الرجال مبلغاً من المال بمعدل ثلاثة جنيهات باريزية عن كل «شاويش» ـ مما يبدو معه بوضوح قلة قيمة هؤلاء المجندين . هذه المبالغ كان الملك يستعين بها فى استخدام المرتزقة والمأجورين والخبراء بالطرق المغامرين من كل ملة وجنس ، وقطاع الطرق الذين كانوا يكونون العصابات . وما كان أقلهم فى هذه العهود ! لا يكادون يبلغون ثلاثمائة !

وهكذا كان تحت يد فيليب أغسطس جيش شبه دائم قوامه ٢٥٧ فارسا من المنعم عليهم ، ٢٦٧ شاويشا يركبون الخيل ، ١٣٣ من حاملى القسى المشاة arbaletiers ، وألفا شاويش مشاة أيضاً ، وثلاثمائة من قطاع الطرق المأجورين ، هذا هو الجيش الملكى ، وفى حالة الحرب يضاف إليه رجال المقاطعات ، وقد بلغوا سنة ١٢١٦ بقضهم وقضيضهم ثمانمائة من الفرسان .

وتنظيم الجيش بسيط جداً . فالملك قائد أعلى يعاونه نائب أحكامه sénéchal الذى يدير العمليات ، وقائد الخيالة الملكية Connétable وهو على رأس جيش الخاصة الملكية ، ولواءان . ونواة الجيش إنما تتكون من الفرسان منتظمين خلف بنودهم ، كل بند banniere قوامه أربعة أو ستة فرسان وسائسوهم ، كما أن « البنود » تنتظم فى فرق batailles تشبه عندنا الفصائل ، وعلى رأس كل منها شريف عظيم . والبنود والفرق تشكيلات تستحدث فى بداية كل حملة عسكرية ، ففى معركة كاسل Cassel ، كان جيش ملك فرنسا منتظما فى إحدى عشرة فرقة تشمل ١٩٢ بندا .

وتضم المشاة حاملى الرماح Piquiers وحاملى القسى arbaletiers . وينتظم الرماحون فى فرق تسمى connetablies ويرأسها قائد يسمونه chevetaine أما حاملو القسى فهم تحت إمرة رئيس لهم هو أيضاً رئيس المدفعية ـ تلك التى لاتزال تستخدم أساسا لأجل الحصار . فإنه منذ القرن التاسع والمدفعية تستعمل آلة الرمى (trebuchet) على طريقة المقلاع بدلا من مدفعية المنجنيق (المقذاف) فى العصر القديم التى أزالتها تماماً لأنها أكثر كفاية وأقل عناء .

والدور الحاسم فى المعركة إنما هو من اختصاص الفرسان ـ الذى هو سلاح الهجوم . أما المشاة فقضى عليهم بالثبات المطلق ، بل لقد لوحظ أكثر من هذا أنه أثناء القرن الثالث عشر ضوعف سلاح الفارس الدفاعى أيضاً ، مما استتبع زوال الفروسية الخفيفة من الشاويشية الراكبين ، وأدى ـ فى القرن التالى ـ إلى أن يسيطر على معركة القتال تماما الفارس الثقيل .

تغيرات القرنين الخامس عشر والسادس عشر

أدى طول القتال أثناء حرب المائة عام إلى تعميم نظام رواتب الجند ، وقد ظهرت عادة دفع مرتبات الجنود هذه فى انجلترا فى منتصف القرن الثانى عشر

مما أتاح للملك أن يستبقى رجاله أكثر من مدة الأربعين يوما ـ الأجل الذى حدده النظام الإقطاعى فى التزاماته ، والذى لم يكن يكفى انتقال فرسانه على القارة ، واضطر ملك فرنسا إلى الأخذ بهذا التقليد أثناء الحرب الصليبية الثانية أو الثالثة (١١٤٦ و١١٨٨) ثم طبقها باستمرار فى كافة الحروب . فليس شارل السابع إذن ـ كما ظن طويلا ـ هو الذى حول مجندى الإقطاع contingents إلى جنود مأجورين soldats .

وقد أتاح التطبيق النظامى لمبدأ الأجور مع هذا لهذا الملك أن يقوم بإصلاح جوهرى ، ففى إبريل سنة ١٤٤٥ أصدر أمراً بإعادة تنظيم الفرسان وإنشاء ما سيسمى فيما بعد « فرق الأسلحة النارية compagnies d'ordonnance » وفى ٢٨ إبريل ١٤٤٨ أصلحت المشاة بدورها عن طريق إنشاء « رماة الفرنجة francs archers » . فالأمر الأول يقضى بتسريح عدد بعينه من « فرق » المرتزقة بينما تبقى الأخرى قائمة فى خدمة الملك ، أولا لمدة سنة ثم يتجدد قيامها بالخدمة سنة بعد أخرى ، مما يؤدى عموماً إلى أن يصرف لرجال الفرق تعويض عن بطالتهم فى فترة ما بين الحملتين ، ومعنى ذلك أن ينشأ عن غير قصد جيش حقيقى دائم .

هذه الفرق المسماة بفرق الأسلحة كان عددها خمسة عشر ، تشمل كل منها مائة جماعة مطاردة Lances ، وكل جماعة منها قوامها ستة رجال راكبين . وكان « رجل السلاح » منهم المغطى بعدته الكاملة يقاتل برمح وقوسين ـ أما حامل الخنجر coutiltier فهو مكلف بأن يجهز بخنجره على الفرسان الذين يتسمرون فى الأرض تحت وطأة عدتهم الثقيلة ، كما كان فى الجماعة خادم الأسلحة valet d'armes وخادم خاص ، كلاهما غير راكبين ، ويساعدان الفارس (رجل السلاح) على ارتداء ملابسه والخروج للقاء العدو .

أما « رماة الفرنجة » فيكونون المشاة ، وهى جيش محلى يجند من القرى بواقع « رام » عن كل خمسين نسمة فى عهد لويس الحادى عشر ، وكان الملك ينقدهم أربع فرنكات فى الشهر ، وقد وصل شارل السابع بهذه الطريقة إلى تجهيز ثمانية آلاف رجل ، وهذا المثل فى التجنيد الأول من نوعه .

فاستحداث « رماة الفرنجة » هذا علامة تحول عظيم آخر فى المجال الحربى فى القرن الخامس عشر ، هو « تجديد المشاة » ، وهنا أيضاً ليست المسألة إحياءاً مفاجئاً يرجع إلى السويسريين ، بل هو تطور مهد له الصراع الطويل بين فرنسا وانجلترا ، ثم وصل به إلى غايته النهائية سكان جبال الألب .

لقد كانت واقعة كورتراى Courtrai سنة ١٣٠٢ انتصارا للمشاة من رجال الفلاندرز على « زهرة فرسان الفرنجة » ، وعلى العكس من هذا فإن فرسان فيليب دى فالوا Ph.de Valois بعد ذلك بست وعشرين سنة ـ كما روى كاسل Cassel ـ قد أعملوا فى جحافل الفلاندرز مجزرة رهيبة . هذه المشاة التى تلقى بنفسها على العدو فى غير نظام مصيرها الهزيمة ، ولم يعمل حسن الإدارة بعد على تفوقها ، وأول ماطرأ عليها من تغيير هو ماحدث أثناء الصراع ضد إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٣ — ١٣٠٧) ، فقد أحل هذا محل القوس العادى arbalète القوس الطويل long bow الذى يهدف إلى نفس البعد ولكن أسرع بثلاث مرات ، ومنذ ذلك اليوم والقسى الطويلة archerie هى العنصر الرئيسى فى الجيش الإنجليزى ، ولكى يستغل هذا التجديد إلى النهاية ، أنزل إدوارد فرسانه إلى الأرض ، فوراء وابل السهام الذى يصيب العدو ، يتقدم الفرسان الانجليز بعداتهم الخفيفة ـ راجلين ـ لكى يقضوا على العدو .

وظهر تكتيك « الفرسان المترجلين » هذا فى فرنسا لأول مرة فى معركة

نوجان سير سين Nogent sur Seine (١٣٥٩) . وسوف يسود القرن الخامس عشر كله . إلا أنه سوف يبدو سخيفا عندما يتبين ضعف القدرة على الحركة من جانب الفرسان المزودين بسلاح ثقيل . فيعود الفرسان إلى سابق وضعهم الحقيقي في القرن السادس عشر . ويكون الهجوم إما خبباً (جلياً a'trot) أو ركضاً au gatop وما ذلك إلا لأن السويسريين قد أظهروا حسن استعمال مشاتهم ، فان هؤلاء الجبليين الذين لا خيل عندهم - وبالتالي لا فروسية - قد عرفوا كيف يستعيدون في نضالهم ضد ملوك النمسا Maison d'Autriche خطة الجحافل القديمة ، إذ يهجم مشاتهم المسلحون فقط بالرمح ذي الثلاثة الأمتار والنصف طولا في شكل مربع من ستة عشر صفاً طويلا وتفعل هذه الكتل المتحركة فعل الكرة النافذة إلى صفوف العدو ، وقد كان من أثر نجاحهم أن صاروا مطلوبين من ملوك البلاد المجاورة ، وفي المقام الأول من جانب ملك فرنسا .

وهكذا نرى أن « فرق الأسلحة » من ناحية ، والمشاة المرتزقة من السويسريين من ناحية أخرى ، ثم «جنود البر» الألمان lausquenets سوف يتكون منهم جيش بكامله على نفقة الملك ، بينما تؤدي تفاهة قيمة رماة الفرنجة إلى اختفائهم ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر . أما نداء القرعة العسكرية ban فلم يعد غير ذكرى .

هذا الجيش الذي هو مرتزق كله هو الذي سيقوم بحملات إيطاليا والمعارك الكبرى في القرن السادس عشر . ففي موقعة أجنادل Agnadel (١٥٠٩) يخرج لويس الثاني عشر على رأس عشرة آلاف من الفرنجة وعشرين ألفا من الأجانب معظمهم من السويسريين وجنود البر الألمان .

وأخيراً فان القرن الخامس عشر يشهد أيضا تحولا رئيسياً ، هو تقدم

المدفعية. إذ أن مدفعية البارود التي كانت قد نشأت في ظروف غامضة في بداية القرن الرابع عشر - ربما في الفلاندرز (حيث استدل عليها لأول مرة سنة ١٣١٤) - قد ظلت أساساً سلاح حصار حتى القرن الخامس عشر. وظهورها على الميدان في واقعة كريسي Crécy (١٣٤٦) قد أحدث الجلبة أكثر مما أحدث الضرر. وكان شارل الخامس أول ملوك فرنسا اهتماما بالمدفعية ؛ فجاء في الأمر الذي أصدره في ١٩ يوليو ١٤٦٧ أن « خير المدن هي تلك المزودة بالمدافع ». وفي عهد شارل السابع ؛ ظهرت اهمية السلاح الجديد بانشاء رتبة « القائد الأعلى للمدفعية ». وكانت حتى ذلك الحين تتبع قائد الرماة ، ويعهد بها إلى بيروBureau وإخوته. فإلى هذا السلاح تدين فرنسا بجزء من انتصاراتها على إيطاليا. كما أن مدفعية شارل الثامن قد أثارت الإعجاب والفزع بين أهل الغال (فيما وراء جبال الألب). وعندما يتولى لويس الثاني عشر وفرنسوا الأول تخف القطع وتنتظم فوهاتها وتحدد سعتها بعيار ستة.

وفي القرن السادس عشر يحدث تقدم الأسلحة النارية في الفرق تنويعاً أكبر. فالبندقية ذات السونكي ، ومدفع اليد الرفيع الطويل ، والمدفع الحقيقي الصغير السهل الحمل والذي يسند إلى الفخذين ؛ لا تظهر إلا في آخر حكم لويس الثاني عشر. أما البندقية ذات الزناد والمدفع الذي يشتعل بالفتيل فلا نلمحها في فرنسا الا حوالي ١٥٦٧. وهكذا نرى إذن مولد نوع جديد من الجنود. ويحل حامل البندقية محل حامل القوس. ومنذ ذلك اليوم تتكون المشاة من عنصرين : حاملي البنادق وحاملي الرماح. كما تنقسم الفرسان بدورها إلى (الجندرمة) المزودين بعداتهم الكاملة ، وفرسان خفاف على خيل خفيفة ، ثم حملة البنادق الراكبين.

سيطرة طابع الملكية على الجيش

لوتلييه Le Tellier

كان الجيش الفرنسى ، عند موت الملك لويس الثالث عشر (١٦٤٣) ضعيفا . وكان ريشليو يفخر فى سنة ١٦٤٠ بأن لديه خمسة عشر ألفاً من المشاة وثلاثين ألف فارس . ولكن الملك لم يكن يشاركه هذا التفاؤل ؛ ولو أن جيش إيطاليا لم يزد على سبعة آلاف رجل .

والقرعة العسكرية من اختصاص القواد Capitaines الذين يأمرون بقرع الطبول ويقيدون المتطوعين الذين تدفع لهم مكافأة. إلا أن الفرار من الجندية هو داء هذا النظام . فتنقص الفرق إلى خمسة عشر أو عشرين رجلا ويصبح الضباط وحدهم فى الجيوش الملكية أكثر من الثلث . وينقرض الفرسان إلى حد ألا تعدو مجرد لم الأتباع والناس من متوسطى الحال ، والنظام لا وجود له تقريباً ، بل هو مستحيل بسبب تراكم التبعات (والتمرين المستمر لكبار الضباط) ورشوة الحراس ، مما يذهب بكل سلطة. والرتب العسكرية ذات تباغير كافية ، فهى زائدة عن الحاجة فى المراتب العليا : قائد أعلى - قائد مساعد - كولونيل . . . ، مع جور الألقاب والاختصاصات بعضها على بعض . وعلى العكس لا نجد بين الفرقة فى المشاة أو الجماعة cornette من الفرسان وبين الجيش ككل أى تقسيم فرعى .

وقد أبقى لوتلييه Le Tellier من حيث نظام القرعة على الطريقة التقليدية

---

(١) انظر فى مجموعة Que Sais — je أيضاً : تاريخ التسليح Histoire de l'Armement للأميرالاى آيريه Colonel Ailleret .

التى هى الطابع المميز لجيوش الملكية ؛ الجيش المرتزق . وكان الملك يخاطب القواد أيضاً لكى يقوموا بفرز الجند . وكانت التعبئات العامة قديماً تحدث فى حالات الضرورة . فكان الملك يأمر « الهاربين من الجندية ، والمشردين والذين لا عهد لهم» بأن يسلموا أنفسهم إلى الحاكم فى ظرف أربع وعشرين ساعة . ونظير هذا كانوا يتقاضون مكافأة ؛ بينما فى حالة امتناعهم كانوا يرسلون إلى اللبانات ،هذه الطريقة التى لم تكن لتأتى الا بفرق قليلة القيمة قد هجرت منذ حرب الفروند La Fronde . وعلى العكس من هذا نظم استخدام الأجانب والوطنيين فى الجندية أحسن تنظيم ممكن .

فالأولون (الأجانب) وهم جنود بارعون ـ ولكنهم غير خاضعين ـ فخورون بمزاياهم ، ونفعيون إلى حد كبير؛قد استبعدوا شيئاًفشيئاً بعد صلح البرانس (١٦٥٩) فيما عدا الألمان والسويسريون . ويكاد التجنيد من بين المواطنين يصبح هو الطريقة الوحيدة للقرعة العسكرية . فتكثر حالات الغش من مغانم غير مشروعة ، إلى تمويه فى الأرقام Passevolants إلى كثرة الفرار . . . إلى أن كانت نهاية العهد القديم حيث شن وزراء الحربية ضد هذه الحالات حرباً لا هوادة فيها ، بحزم اكثر ونتائج أحسن .

وفى جيش كهذا مكون فحسب من المرتزقة ، المسألة التى تشغل الأذهان هى مسألة الرواتب la solde . فتكون قوة الملك إذن رهينة بحالة ماليته . ففى سنة ١٦٦٠ كان الراتب اليومى هو خمس (نكلات) (١) لرجل المشاة ، ومن ١٢ إلى ٢٥ (نكلة) للفارس.

فإذا عرفنا التكاليف الكلية أصبح من السهل معرفة الأرقام (عدد

---

(١) sou أو sol واحد على عشرين من الفرنك الفرنسى الذهب يعادل مليمين تقريبا .

الجنود) . فني سنة ١٦٥٩ وعند نهاية الحرب ضد أسبانيا ، كان الملك ينفق ما بين عشرين وخمسة وعشرين مليون جنيها فى السنة . إذ بلغ الجيش ٩٥٢ فرقة مشاة و ٨٣٠ جماعة من الفرسان . وفى سنة ١٦٦٦ إبان حرب الاستحقاق guerre de Dèvolution [1] كان لويس الرابع عشر يدفع ١٥،٩ مليوناً من الجنيهات لـ ٩٧ر٥١٥ رجلا (منهم ٤٢٥ر١٥ فارسا و ٠٩٠ر٨٢ من المشاة) . فكان جيش لويس الرابع عشر يحوم حول مائة ألف رجل .

هذا الجيش الذى يكلف الملك غالياً ؛ قد أراد وزيره أن يكون عدد الرتب . فأنشأ أولا نظام تدرج هذه الرتب . فني القمة القائد الأعلى للجيش فالفريق والمشير واللواء ـ عدا أمير الايات فرق الفرسان ، وهؤلاء هم كبار الضباط الذين يعينهم الملك نفسه ولا يبتاعون مناصبهم . وأدنى من هؤلاء الوظائف التى يمكن شراؤها أو بالرشوة ، وهى تكون سلم الدرجات الموجود اليوم : قائمقام ، بكباشى ، صاغ ، يوزباشى ، ملازم أول ، ملازم ثان . وكانت الترقية تتم فيما مضى وفقاً لنظام الجدول . أما إذا كانت الرشوة باقية فإن تدرج الوظائف فى هذه الرتب يلغى ، ويثبت بدلا منه نهائياً تدرج فرق الجيش ذاتها .

وقد تباين تسليح الفرق منذ القرن السادس عشر . ففرق المشاة تشمل نوعين من الجنود : حملة البنادق الذين يكونون ثلثى عدد الجيش ، ثم حملة

---

(١) هى الحرب التى قام بها بعد موت فيليب الرابع ملك إسبانيا لويس الرابع عشر الذى لم يلبث أن طالب بالبلاد الواطئة باسم زوجته مارى تريز (١٦٦٧ — ١٦٦٨) . وكانت الحرب سريعة وخاطفة وانتهت بمعاهدة اكس لاشابل التى ضمت الفلاندور لفرنسا . وإنما سميت حرب الاستحقاق لأن ملك فرنسا قام بها مدافعا عن حق زوجته ـ ابنة فليب الرابع من زواجه الأول ـ فى خلافة أبيها على العرش (المترجم)

الرماح ، وكلهم مزودون بالسيف العريض . ومنذ ١٦٤٠ كان للبندقية أيضاً سونكى ، ولكن لما كانت تثبت فى فوهة البندقية فقد كانت تعوق إطلاق النار . واختفت الخوذة والدرع . وأصبحت الكسوة فى عهدة قائد الفرقة الذى لم يلبث أن أهملها دافع البخل وغالباً ما يترك الجند فى أسمال بالية ودون حذاء . أما الفارس نفسه فهو يلبس الخوذة والدرع الذى يقى صدره وظهره . وكأسلحة هجوم يحمل السيف ومسدسين ، كما كان حامل البندقية يستعمل بندقيته أيضاً .

وكان التسليح - كالكسوة - يقوم به قواد الوحدات (اليوزباشية) فغالباً ما كان مضحكا وتافها . وبدأ المدفع الذى ظهر فى إيطاليا وانجلترا حوالى سنة ١٦٣٠ ينتشر فى مختلف الأسلحة رغم معارضة لوتلييه le tellier وقد تم استخدامه نهائياً فى الجيش الفرنسى خلال حرب الفروند استخداما أقل بساطة من البندقية ولكن أقل عناء بكثير . وقد أخذ به تماما فى نهاية القرن السابع عشر .

إنما فى عهد لوتلييه Tellier أيضا ظهرت « الأسلحة الخاصة » . والحق أنه حتى ذلك الحين كانت المدفعية وسلاح المهندسين يختلطان تماما تقريبا بالمشاة إلا أنه أثناء فترة الحرب الطويلة التى انتهت فى ١٦٥٩ قد طرأت تجديدات كثيرة . فقد جعل السويديون (أيام جوستاف أدولف) المدفعية أكثر خفة وأكثر حركة ، وسوف تشارك منذ ذلك اليوم فى تحركات الفرق المختلفة هذا إلى أن عمليات الحصار فى المواقع المدنية حينئذ قد أتاحت لعلم التحصينات الحربية فضلا عن هذا أن يتقدم .

فما بين سنتى ١٦٤٣ ، ١٦٦٦ يؤدى التطور إلى أن يصبح سلاحا المدفعية والمهندسين سلاحين منفصلين لكل منهما اختصاصه . فقد ظلت إدارة المدفعية

هى بعينها التى أنشأها الأمر الذى أصدره فرنسوا الأول فى سان جرمان لَن لِى فى فبراير ١٥٤٦ وعلى رأسها يوجد قائد من الضباط العظام Grand Maitre هو الذى يرأس الأشخاص والمهمات والمصانع . ويوجــد تحت امرته أميرالاى وملازمون (واحد لكل فرقة) ومراقبو الإمدادات . فأصبح هؤلاء الضباط الآن متدرجين فى سلسلة الرتب العسكرية ويتكون منهم سلاح مستقل فما يزالون أيضاً ضباطا بلا فرق ، إذ أن تشاحن حكام المعاقل الحربية ـ رؤسائهم فى المدفعية ـ والفوضى التى كانت تسود الميزانية ، قد حالت بين الوزير وبين أن يجعل لهؤلاء الملازمين جنودا .

كذلك أعيد تنظيم المواد الحربية . فعيارات المدافع التى كانت متعددة حتى ذلك الحين قد حصرت فى أربع . فالمدفع عيار أربعة وعشرين (ويقذف بقنبلة وزنها ٢٤ لبرة) ، والمدفع اليدوى الطويل الرفيع المعروف فى ذلك العهد Couleuvrine أصبح ثلاثة أنواع : الكبير والصغير والمتوسط . وتلك هى بداية المدفعية الحديثة .

ويظل سلاح المهندسين يمثله « مهندسون » يتبعون المديرين . وكانت الأيدى العاملة اللازمة لأشغالهم يحصلون عليها فيما مضى باستخدام الفلاحين من المناطق المجاورة . إلا أنه شيئاً فشيئاً حل الجنود محلهم . وعكس هذا هو الذى حدث لضباط المدفعية . فالمهندسون بوصفهم متخصصين غالباً ما كانوا من الأجانب (والهولنديين خصوصاً) ولا يدمجون قط فى ســلسلة الرتب العسكرية .

وثمة خاصة أخرى جديرة بالذكر فى جيش القرن السابع عشر هذا : ونعنى بها تسرب العنصر المدنى . فحتى ذلك الحين كان العسكريون يكونون عالماً مستقلا . إلا أنه بنفس القدر الذى أصبح به الجيش ملكيا ، نراه

يضطر إلى أن يتسع صدره لكل من يأتى بهم الملك . فالمراقبون ومفتشو الجيش كانوا فى نفس الوقت مفتشى مالية ، ووكلاء أو مديرين بالمعنى الحديث للكلمة ، ومراقبى أعمال ، وقضاة . فلايبقى لقائد الجيش إلا إدارة العمليات أو الشئون العسكرية الخاصة . وهذا تغيير رئيسى جدير بالاعتبار ، لأنه بداية تطور لرقابة أكثر فأكثر إحكاما تفرضها على الجيش السلطة المدنية .

تطور القرن الثامن عشر :

وقد جرب الجيش الذى تمخضت عنه هذه الإصلاحات قوته فى حروب لويس الرابع عشر . إلا أن النضال كان شاغلا بحيث لم يتسع الوقت للاستفادة بهذه التغييرات التى كانت تلهمها التجربة . حتى إن القرن السابع عشر الذى سيطرت عليه أسماء كوندى Condé وتيرين Turenne ولكسمبورج وكاتينا Catinat ولوفوا Louvois وفوبان Vauban قد شهد تجديدات تعد قليلة نسبيا . وعلى العكس من هذا القرن الثامن عشر بجاذبيته وصفائه وأحلام « السلام الدائم » التى تترها فيه الأب سان بيير ، فأنه يقدم فائدة كبرى وطابعاً من « الثورة » يجعله فيما نحن بصدده فى نفس مرتبة القرن الخامس عشر .

ذلك أن الأمر الذى أصدره شوازيل Choiseul فى أول ديسمبر ١٧٦٢ قد قلب طريقة القرعة رأسا على عقب . وجرد القادة من صفتهم كملاك للفرق التى يرأسونها فلم يعودوا غير ضباط يتقاضون أجورهم . وتعهد الملك نفسه بالاقتراع للتجنيد ، وامداد الرجال بالمعدات . وهو إنما يقوم بذلك عن طريق وكلاء له يساعدهم موظفون محليون . فتجنيد الأتباع racolage مازال قائماً إلا أنه أصبح لخدمة الملك بدلا من خدمة القواد اليوزباشية .

وثمة فى نفس الوقت إصلاح آخر لا يقل أهمية ؛ وهو أن الوحدات

تبقى بصفة دائمة . فالحق أنه حتى ذلك الحين كان يسرح عقب كل حرب عدد بعينه من الفرق . ولكن شوازيل قد حدد عدد رجال الأسلحة المختلفة بحيث يظل ثابتا . وفى حالة الجهاد تقوى فصائل الجيش الموجودة بزيادة عدد رجال الفرق المحاربة . ومنذ ذلك اليوم أصبح للجيش بحق صفة الدوام والاستمرار .

وثمة نظام موروث عن السلف ، وله أهميته لأنه أيضا همزة الوصل بين الماضى والمستقبل ، ونعنى به الفرق المحلية Milices (١). وأصل هذه الفرق يرجع إلى زمن بعيد . فنحن نجدها فى القرن الثانى عشر يقودها حاكم البلدة لتشارك فى عمليات الحصار . ولكن قيمتها العسكرية كانت معدومة ، ولم تلبث أن اختفت بعد لويس الثانى عشر وعاودت الظهور مرات عديدة بعد ذلك فى عهود فليب أغسطس وشارل الخامس والسابع . وهذه الفرق كانت تعبأ باسم هذا المبدأ القديم جداً — مبدأ التجنيد الإجبارى الشامل.

فلما أعيد إنشاؤها سنة ١٧١٩ تكونت منها مائة كتيبة . وكان التجنيد يجرى بطريقة الاقتراع من بين الفلاحين بمعدل عدد بعينه من الرجال عن كل محلة. وأثناء حروب التنازع على العرش النمسوى(٢) وحرب السبع سنين نجدها

---

(١) مليشيا militia مدنيون مدربون عسكريا ليسوا من قوة الجيش والكلمة لاتينية الأصل مكونة من كلمة milice ومعناها جنود ومليشيا (خدمة عسكرية) (المراجع)

(٢) هى الحرب التى قامت فى النمسا بسبب التنافس على عرش الإمبراطورية الذى نشب بعد وفاة شارل السادس وخصوصا بسبب تطلع فردريك الثانى إلى الاستيلاء على سلزيا والتى استمرت من ١٧٤١ إلى ١٧٤٨. وفيها ناصرت فرنسا وبروسيا أمير بفاريا وتخلتا عن مارى تريز . وبينما هما تعلنانه ملكا باسم شارل السابع كان فردريك الثانى قد أخضع سلزيا بمعاهدة برسلو. ولكن موت شارل السابع (١٧٤٥) واعتراف ابنه بحقوق مارى تريز قد أنهى الخلاف مع استمرار الحرب مع فرنسا فى البلاد الواطئة وألمانيا وإيطاليا والمستعمرات لأن انجلترا كانت منذ البدء فى صف مارى تريز وانتهت هذه الحرب بصلح إكس لاشابل (١٧٤٨) لصالح الجميع ما عدا فرنسا (المترجم) .

تصل إلى مائة حتى مائة وخمسين ألفاً من الرجال . وبالغائها فى سنة ١٧٨٩ بوصفها « اعتداء على الحرية » أصبحت فى كل مكان نواة الجيش الوطنى .

وإصلاح آخر جدير بالاعتبار هو إنشاء تفريعات ثابتة ونهائية . ففى عهد شوازيل أيضاً أصبح لفرق الجيش تكوينها الموحد من كتيبتين ذات أربع سرايا وتنقسم السرية بدورها إلى فصيلتين من أربع فرق ، كما كانت فصائل الجيش خمس جماعات . وأكثر أهمية من هذا أيضاً ظهور مبدأ التقسيم التفريعى إلى فرق الذى هو أساس الجيوش الحديثة . وكان تيرين Turenne قد فكر فى جعل الكتيبية وحدة تتكون من فصيلتين ذات سلاح واحد فى كليهما وأثناء حرب السنين السبع كان ما يشغل بال مارشال ساكس ودوق بروجلى مرونة تنظيم الجيوش الذى أصبح ثقيلا جداً ، فأبدعا تشكيلات مؤقتة شملت الأسلحة كلها من مشاة وفرسان ومدفعية ومهندسين ثم أصبح هذا التكوين مستمرا - نظرا لفساد التنظيم المعمول به فى وقت السلم .

وفى سنه ١٧٧٦ كانت فرنسا مقسمة إلى عدد بعينه من « الأقسام » تشمل فرقاً من كافة الأسلحة يقود كلا منها أميرالاى هو الذى يقودها أثناء الحرب . فقام بالخطوة الأخيرة فى سنه ١٧٨٨ هيئة أركان حرب الجيش التى قسمت الكتائب مثنى مثنى إلى ٥٢ فرقة مشاة و٣٢ فرسان . فمن اتحاد عدد متغير من فرق المشاة والفرسان تتكون وحدة أو جماعة . وظلت المدفعية كما هى عنصراً من عناصر الجيش .

وللأخذ بهذا المبدأ نتيجة ضخمة من حيث التكتيك ، هى قدرة الجيش فى المعركة على أن يتجزأ إلى أسلحة منفصلة ، وبالتالى أن يقوم بتحركاته ، وحينئذ تتناثر الأسلحة وتغطى جبهة أوسع بكثير من أرض المعركة ، أو تدرج لتنتزع الغلبة من العدو . وقد كتب أحد كبار أصحاب النظريات الحربية فى القرن الثامن عشر - وهو الكونت جيبير Guibert - يقول : إن القائد

الذى يخرج على النظم المعروفة ، يربك عدوه ويذهله ، ولا يدع له متنفساً ، ومن ثم يجبره إما على أن يصمد أو يتقهقر أمامه أبدا . وأنا أجرؤ على القول بأن ثمة طريقة لقيادة الجيوش أكثر نفعاً وأشد حزماً ، وأولى بأن تحرز الانتصارات الكبيرة من تلك التى نستخدمها حتى الآن » . وقد كانت هذه العبارة نذيراً بحروب نابليون كلها .

ولا ندع جيبير دون التنبيه إلى مقابلته فى حروب التكتيك الكبرى بين محاربين « بالتكتيك الخفيف » ورجال التكتيك العنيف ، أو بعبارة أخرى الذين يقومون بدور المشاة محاربين بالنار أو بالالتحام . فذلك دليل على أن القرن الثامن عشر ليس أقل فى درجة التفكير الحربى مما هو فى الفكر عموماً

والتخصص فى سلاح المدفعية ـ الذى رأينا بوادره فى عهد لوتلييه ، قد تقدم خطوة أخرى فى عهد لوفوا Louvois الذى جعل « للضباط بلا فرق » جنوداً وذلك بإنشائه منذ سنة ١٦٧١ « فرق قاذفى القنابل » bombardiers ويتم التخصص سنة ١٧٢٠ بإنشاء فصيلة « المدفعية الملكية » Royal - Artillerie التى تشمل فرق المدفعجية ، وحافرى الخنادق ، والعمال ، جامعة بهذا بين « سلاحى المهارة الحربية » . ولكن انفصالها يصبح نهائياً فى عهد شوازيل الذى أنشأ سنة ١٧٧٦ سبع فصائل مدفعية تضمها كتيبتان . وكانت تتبعها سبع مدارس لتخريج ضباطها الذين أصبح لابد لهم أن يتخرجوا فيها . كما تجددت أدوات الحرب على يد جريبوفال Gribesuval(١) وعرفت المدفعية ـ شأنها شأن المشاة ـ تنازع المدارس المختلفة : فثمة « الحمر » المتشيعون للدفعية القديمة الثقيلة ، « والزرق » أنصار المدفعية الحديثة الخفيفة .

---

(١) أنظر فى مجموعة Que Sais je أيضا : تاريخ التسليح Histoire de L'Armement

وفى سلاح المهندسين فصل مطهرو الألغام وممهدو الطريق pionniers من المدفعية سنة ١٧٧٦ . ولكن المهندسين المتخرجين فى مدرسة مزيير Mézières ظلوا ضباطا بلا فرق ، يستخدمون يدآ عاملة لا يرأسونهامباشرة. وإنما فى سنة ١٨٢٠ نشأ أول آلاى من المهندسين .

وفى سنة ١٧٨٩ كان عدد جيش الملك من المشاة ٧٩ آلاى من الفرنسيين و ٢٣ آلاى أجانب . ويتألف الآلاى من كتيبتين وكل كتيبة أربع سرايا عدا ١٢ كتيبة من القناصة . أما الفرسان فهناك ٢٤ آلاى فرسان ، واثنان من حاملى البنادق ، وستة من الفرسان الخفاف على طريقة الهنغاريين ، وثمانية من صف ضباط فرسان (يقاتلون راجلين أو راكبين) dragons ، واثنا عشرة من المطاردين القناصة . وأما المدفعية فسبع فصائل ، والجملة ٢٧٢ ألف رجل يدافعون عن ٢٠ مليون نسمة .

هذا هو تطور الجيش الفرنسى ، بحثناه فى خطوطه العريضة .

نماذج أجنبية

الجيش الإنجليزى فى القرن الرابع عشر :

كان إدوارد الأول (١٢٧٤ — ١٣٠٧) فى مطلع هذا القرن أول من أصلح الجيش الإنجليزى إصلاحا كبيرآ عما كان عليه فى هذه البلاد تحت حكم أسرة بلانتاجنيه Les plantagenets (١) لأنه كان ثمة من الفرق الآتية من

---

(١) أسرة ذات أصل أنجوفى حكمت انجلترا منذ عهد هنرى الثانى حتى تولى هنرى السابع العرش ١١٥٤—١٤٨٥ وفى القرن الرابع عشر انقسمت على نفسها إلى فرعين متنافسين: يورك ولانكاستر ، وبينهما قامت حرب الوردتين Deux Roses (١٤٥٥—١٤٨٥) التى سميت كذلك لون الورد =

بلاد القارة أكثر مما كان هنالك من الجزيرة ذاتها فهذا الملك هو الذى انتهى من تحويل جيش الإقطاع إلى جيش مأجور . فالأجور تسمح بأن تكون الفرق تحت يده تماما كما تحيل هذه الفرق الإقطاعية إلى جيش إنجليزى منظم . وجنود إدوارد الأول هم أتباع مأجورون ، ولكنهم ليسوا مرتزقة بالمعنى الصحيح ، وليس المال هو وحده الذى يربطهم بالملك . فالحق أن الماجنا كارتا (١٢١٥) كان يقضى بإبعاد المرتزقة . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد منهم فى الجزيرة أحد .

وتحول مشاة الإنجليز الذين كانوا يجندون من بين تابعى الأفصال arrières vassaux إلى اصطناع الرمح الطويل Long - bow المأخوذ عن أهل الغال الجنوبيين أما القوس الكبير الذى يبلغ المترين فكان من خشب السرو والسهم ـ الذى كان طوله نصف طول القوس ـ كان من الفراشنة(١) . وكانت قوته تصل إلى مائتى متر . وفى هذه المسافة يستطيع السهم أن يثقب قميص الزرد . ومع أن هذا القوس الكبير أقل إحكاماً من القوس الصغير arbaléte فانه يرمى أبعد بكثير : من عشر إلى اثنى عشر سهما فى الدقيقة . وهذه الميزة الأخيرة هى التى ستضمن له الفوز ، وبالتالى انتصارات الإنجليز الأولى فى حرب المائة عام .

فى بدء هذا الصراع الكبير لم يكن تحت يد ملك انجلترا مع هذا إلا جيش ضئيل العدد : ألفا فارس (منهم ١٢٠٠ رجل مسلحين و ٨٠٠ شاويش راكبين يسمون hobelars) ومثلهم من رماة السهام . وفى معركة جريسى Grecy (١٣٤٦) كان لدى ادوارد تسعة آلاف رجل ثلثهم من الفرسان .

= الأحمر والأبيض الذى جعله كل منهما شعاره . وانتصر فيها لانكاستر (هنرى السابع ـ تيودور) ولكنها لطولها قد أنهكت الأسرة وعجلت بزوالها . [المترجم]

(١) fréne وبالانجليزية Ash tree والأندلسية frezno والأصل اللاتينى fraxinus وهو نوع من الأشجار الزيتونية الأوربية ، ويسمونه لسان العصفور [المترجم] .

ومع هذا فإن جيش ملك انجلترا فى القرن الرابع عشر يتسم بضعف الجيوش الإقطاعية عموما من حيث العدد . ولكنه يدين بقوته وتفوقه لا إلى عدده بل إلى تسليحه .

الجيش الإسبانى فى القرن السادس عشر :

كانت حركة استرداد المسيحيين أسبانيا Reconquista على وشك أن تنتهى (١٤٩٢) عندما أصلح الملك فرديناند الجيش – لتطلعه إلى الفراغ من توحيد أسبانيا – ولأن الجيش الذى كان قد قام بغزو غرناطه قد احتفظ بطابع إقطاعى كبير .

فأراد الملك أن يقلد شارل السابع وأن ينشىء ما يشبه وحدات للأسلحة ففرض على النبلاء الذين يملكون قدراً معيناً من الدخل أن يكون لدى كل منهم جواد مجهز ، ثم أنشأ فى سنة ١٤٩٥ خمسة وعشرين سرية من الخيالة الثقيلة كل منها ذات مائة رجل من حاملى الرماح وسبعة عشر فرقة من الخيالة الخفيفة يسمونهم estradios . وحدد التسليح تبعاً لثروة كل نبيل : ومن الناحية النظرية كان الملك يجند قواته بنداء القرعة العسكرية . وقد كان مقتضى الأمر الذى صـــدر فى بلد الوليد فى ٢٢ فبراير ١٤٩٦ أنه سيجند من بين الإسبانيين من عشرين إلى ٤٩ سنة رجل عن كل ١٢ رجلا . أما فى الواقع فكان يكفى أن تقدم المدن المختلفة بياناتها تاركة الاستدعاء لمن يتقدم برغبته . فلم تكن هذه القوات دائمة ، إنما كان يتكون منها احتياطى يتقاضى راتبا منذ أن يطلب للتعبئة . ودفع الرواتب للجند تقليد قديم جدا فى شبه الجزيرة لأنه منذ القرن التاسع كان أمير قرطبة الحكم الأول يدفع أجر الخدمة العسكرية .

وتفوق إسبانيا فى القرن السادس عشر إنما يقوم فى جزء منه على المشاة الذين لا زالوا موضع إعجاب بوسويه Bossuet ؛ وإلى اليوزباشى جونزالف القرطبى Gonzalve de Cordone قائد حروب إيطاليا الاسبانى يرجع الفضل فى تنظيمها. فقد كان سلاح هؤلاء المشاة - شأنهم شأن سائر الجيوش فى ذلك العهد - الرمح والبندقية ، وكانت وحدة التكتيك اللواء tercio الذى قوامه ثلاثة آلاف رجل ينقسمون إلى كتائب batallatos من خمسمائة رجل كل : مائة حاملو رماح ، ومائتان بنادق ومائتان يقاتلون مدرعين بالمجن المستدير rondaches فكون هذا القائد جيشاً على غرار الجحافل السويسرية ولكنه أكثر مرونة وأحسن تنظيما وهكذا منذ ١٥٢٥ أصبح ملك إسبانيا رأس مشاة من الوطنيين هى التى سوف تبقى على قوته حتى معركة روكروى Rocroy (١٦٤٣) . وإلى جانب هذه المشاة يهيب الملك مع هذا بالمرتزقة . فأصبح الجيش الأسبانى تعداده فى هذه الموقعة من ٢٦ إلى ٢٨ ألف رجل تنتظمهم عشرون كتيبة مشاه و ١٠٥ آلاى من الفرسان . وإلى جانب هذه العشرين كتيبة ثمة خمس آلايات قديمة مكونة من الأسبانيين وثلاثة من الإيطاليين وخمسة من الألمان ، واثنان من جنود كونتات فرنسا وخمسة من الوالون سكان جنوب شرق بلجيكا les wallons

وفى القرن السابع عشر أشبه الجيش الاسبانى فى طابعه الجيش الفرنسى .

جيش جوستاف أدولف السويدى : (١٦١١ - ١٦٣٢) :

كان هذا الجيش باختلافه عن الجيوش الأخرى فى عصره نموذجاً انتقالياً وبشيرا بالجيش الوطنى . فإلى جانب المرتزقة المجندين من كافة أسواق الرجال فى ألمانيا ، تكونت المشاة السويدية من نواة قوية من الفرق الوطنية يجندون من بين فلاحى المملكة . فقبل كل فرز ، يقيد الرعاة (الحكام) قائمة

الشبان الذين تعدوا الخامسة عشرة فى بلدهم . ويختار منها رجال الملك واحداً عن كل عشرة . هذا هو الاقتراع . وكانت الخدمة تستمر عشرين سنة . وبهذا عبأ الملك ١٥ ألف رجل لحرب بولونيا ، ومن عشرين إلى ثلاثين ألفا لحرب الثلاثين سنة .

ولتحمسه للأمور العسكرية ، عدل جوستاف أدولف تسليح جيشه وتنظيمه كيما يجعله أيسر تحركا . ومن أجل هذا قلل عدد السرايا والآلايات فاصبح السلاح أخف : الرمح الذى أنقص طوله من ١٥ إلى ١١ قدما ، والبندقية التى قل وزنها بحيث يمكن إطلاقها دون إسنادها على قائم . كما أن استعمال (الخرطوش) قد أتاح لها إطلاقا أسرع . ويقدر أن فرقة البنادق السويدية كانت تطلق بسرعة تفوق ثلاث أو أربع مرات سرعة إطلاق الجيش الإمبراطورى .

والمدفعية بدورها قد تناولها التخفيف . فالمدفع الذى اخترعه الانجليزى هاملتون هو الذى كان يستخدمه وحده السويديون بعد سنه ١٦٢١ . كان من الحديد ، وكان مقاسه أربعة أقدام طولا ، ووزنه ٦٢٥ لبرة(١) ، ويرمى بقذائف وزن أربع لبرات . وبحمله على عجلات كان من الممكن بسهولة دائما نقله ـ إذ كان يكفى لجره حصانان .

كل هذا قد يسر تحركات الجيش ، يضاف إليه الروح المعنوية العالية . فإن إيمان هذا الجيش شبه الوطنى بمبادىء لوثر ، وبراعة قائده ، هى التى تفسر دوى الأسلحة السويدية فى مطلع القرن السابع عشر .

---

(١) اللبرة livre نصف كيلوجرام .

الجيش النمسوى فى القرن الثامن عشر :

عند تولى مارى تريز العرش سنة ١٧٤٠ كان الجيش النمسوى يبلغ فى جملته ١٥٧ ألف رجلا ، إلا أن القوات المقاتلة منها قد قلت إلى ستين ألفاً بسبب وجود حاميات فى البلاد البعيدة (البلاد الواطئة وإيطاليا) وخصوصا على الحدود التركية . وكان الجنود يجلبون بنظام فرز مزدوج : القيد الاختيارى للمرتزقة الأجانب والوطنيين كما فى كل مكان فى أوربا ، ثم التعبئات غير العادية التى تدعو إليها فى الملكيات الوراثية لحظة الحرب . وفى سنة ١٧٧١ أدخل على السبعة والثلاثين آلاى الألمانية فى جيش ملك النمسا « النظام الإقليمى système cantonal » الذى كان متبعاً فى بروسيا . أما هنغاريا فقد كانت تقدم جيشاً محليا ، وأما المناطق العسكرية قرب الحدود التركية فكانت تعرف النظام الخاص بالشعوب الخاضعة تماماً لالتزامات عسكرية شبه دائمة ، كتلك التى كانت موجودة فى بلاد القوزاق .

كانت المشاة تشمل حملة البنادق ورماة القنابل grenadiers (بمعدل ست سرايا من الأولين وسرية من الثانين بكل آلاى) وكان الآلاى يشمل ثلاث كتائب يبلغ عددها من الناحية النظرية ١٦٠٠ رجلا . أما الفرسان فكانت تتكون من حملة الدروع والفرسان الدراجون dragons والفرسان الهوسار hussards وأما المدفعية فقد عدلها قائدها الأعلى أمير لختنشتين Lichtenstein فأنقصت العيارات إلى أربع (والقذائف ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١٢ ليرة) وصارت الطلقات تعبأ فى (فشنك) مجهز من قبل ، وفى سنة ١٧٨٦ كان قوام المدفعية ثلاث لواءات فى كل منها عشر سرايا . أما سلاح المهندسين فكان يتكون من هيئة المهندسين الذين زودوا فى سنة ١٧١٦ بسرية من واضعى الألغام

أضيف إليها بعد ذلك حافروا الخنادق ، ومهندسو الكبارى المائية pontonniers وجنود الطرق .

هذا الجيش الذى كانت فيه تشترى كافة الرتب ، يمثل جميع خصائص الجيش الملكى الخالص .

جيش فردريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦):

إن الجيش البروسى الذى أثار إعجاب أوربا فى القرن الثامن عشر إنما يرجع إلى الأمير العظيم فردريك جيوم ، والذى عدله فردريك الأول ، وخصوصاً الملك القائد فردريك جيوم الأول .

والطابع الذى يميز هذا الجيش هو طريقته فى الاقتراع ، التى جعلت منه إلى حد كبير جيشاً وطنياً . فعلى غرار جوستاف أدولف ، ألقى ملك بروسيا على عاتق رعاياه من جديد الاعباء الحربية ، لغرض واضح بسيط ، وهو أن تكون له قوة كبيرة بأقل تكاليف ممكنة .

فكان قيد الجنود الوطنيين يتم عن كل محلة تشمل فى المتوسط ١٨٠٠ أسرة ، ويطلق اسم رئيس المحلة على القادمين منها . هذا النظام اخترعه الملك القائد فى سنة ١٧٣٣ . وكل قسيس يعمد طفلا ذكرا يبلغ اسمه لنائب الأحكام bailli الذى يقيده فى السجل العسكرى . وفى سن الخامسة عشر يقسم الطفل يمين الولاء للجندية ولا يستطيع مغادرة البلاد مخافة أن تصادر أملاكه . ومع هذا فان الذين يعفون من الخدمة كانوا كثيرين جداً : النبلاء وأصحاب المهن العقلية والمشتغلين بالمهن الحرة ورجال الدين والتجارة . والحق أن عبء الخدمة الإجبارية كان واقعاً على الفلاحين . فكل محلة كانت ترتبط بكتيبة تجند فيها رجالها بمحض الاختيار أولا ثم من واقع سجلات حكام القرى بعد

ذلك . ولم تكن مدة الخدمة محدودة ، وكان الجنود الذين يطلق سراحهم يبقون تحت أمر الملك ومنهم يتكون الاحتياطي (الرديف) المدرب .

ولم يكن شعب المملكة الصغير (الذى قدر فى سنة ١٧٤٠ بثلاثة ملايين) كافياً ليجندمنه جيش كانت تريده أطماع الملك السياسية عظيما . فكان قيد المرتزقة من الأجانب كما فى كل بلاد أوربا . وكان تنظيم ١٧٤٣ يقضى - فيما يتعلق بعدد المشاة أثناء السلم - أن تكون نسبة الثلثين من الأجانب والثلث من المحليين . وبقصد الاقتصاد زيدت نسبة هؤلاء الأخيرين عموماً حتى بلغت ٥٠ ٪ . ثم لجأ فردريك الثانى إلى طريقة أخرى لزيادة عدد جيشه وهى القيد الإجبارى للمسجونين . وهكذا بعد معاهدة درسدن (١٧٤٥) أكمل الجيش بادماج المسجونين بين الخمسة والأربعين ألف سكسونى ونمسوى . ولم تنس المانيا هذه الفكرة .

ومن خصائص الجيش البروسى المميزة الأخرى أن التعيين والترقية بالكادر . فبينما فى الجيوش الأخرى كانت الرتب تشترى ، كانت هيئة ضباط بروسيا يتخرج رجالها فى الكليات الحربية . تلك الكليات (مدارس ضباط كولبرج وبرلين) التى كانت تقبل أبناء النبلاء منذ سن الرابعة عشرة . وبعد أربع سنين من الدراسة يلتحقون بالكتائب بصفتهم حاملى الأعلام (بيرقدار أو سنجق دار porte - enseigne) ثم يصيرون ضباطاً بالأقدمية . . ولم يكن عامة الشعب ليستطيعوا أن يصيروا ضباطاً إلا فى المدفعية أو المهندسين . ولم تكن الترقية فقط ، بالاختيار . فلكى يتم تكوين الكادرات أنشئت الأكاديمية العسكرية المشهورة فى برلين . وبانشائها لم يتميز جيش فردريك الثانى عن بقية جيوش أوربا .

والأرقام جديرة بالاعتبار بالنسبة لتعداد شعب المملكة . فى ١٧٤٠

كان عدد الجيش ٧٦ ألف رجل منهم ٢٦ ألف أجنبي . وأثناء حرب السبع سنين ارتفع العدد إلى ٢٢٠ ألف رجل ، ثم هبط ثانية إلى ١٥٠ ألفاً .

ومع هذا فإنه لا كثرة عدد الجنود ، ولا التعديلات التي أدخلت على طريقة الرمي في المشاة أو إدخال استخدام الذخيرة المجهزة في المدفعية هي التي أكسبت جيش ملك بروسيا عظمته الحربية . فان فردريك عظيم بفكرته ذاتها عن فن الحرب . ولقد أثارت دراسة التكتيك الفردريكي (النظام المائل المشهور) مجادلات عنيفة بين أصحاب النظريات . إلا أن إغفاله لمبدأ التفريع أو النظام التقسيمي للفرق principe divisionnaire يربطه بماض قد انقضى ، وسوف تدرك بروسيا ذلك في معركة يينا .

الفصل الرابع

العصابات

إن الالتفاف حول الأقوى ـ الذى لايلبث أن يصبح رئيساً ـ ظاهرة تلقائية يترجم عنها الأطفال بعبارة «تكوين شلة» أو عصبة bande . وعلى طول التاريخ تبدو هذه الظاهرة عندما يعوق تلاشى السلطة الحكومة المركزية من احتكار القوة. وهذا فى جملته هو نظام الأقوياء puissants ولكن دون ارتباطات الزعماء فى نظام الإقطاع . هؤلاء الرجال الذين كانوا متشردين بالأمس ، وهم اليوم مجندون ؛ قد وجدوا أنفسهم يأتمر بأمرهم الرجال الذين يجلبونهم للجندية ، والذين يدفعون رواتبهم ويجرونهم إلى المغامرة . فالحرب عندهم مصدر ثروة ، ومجد وعظمة . وهى تحمل فى ذاتها هدفها . وكما قال أحد كبارهم : فالنشتين Wallenstein « إن الحرب ينبغى أن تمهد للحرب » القائد يسمى نفسه مقاول الحرب entrepreneur de guerre أما الجندى فهو محارب محترف .

وتبدو العصابة مجتمعاً خاصاً ، له قوانينه وتقاليده على هامش المجتمع الصغير جداً . ومع هذا فإننا لانستطيع أن نستبعدها من تاريخ الجيش . فإنها تمثل اتجاها مبالغاً فيه ؛ ونعنى به الفاعلية الذاتية autonomie للمجتمع العسكرى ، بل أحياناً ما أخذت مكان الجيش بمعناه الحقيقى ـ كما فى إيطاليا . لهذا كان من الممتع أن نتتبع عبر القرون أجلى مظاهرها .

١ — الجمعيات الكبيرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر :

كثيراً ما رأينا فى فرنسا ظهور عصابات التروست Truste وكلوفيس Clovis فى مكامن معينة لقواد الحرب العالمية الثانية ، إلا أنه فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تبلغ هذه الظاهرة - ونعنى بها العصابات - أقصى اتساعها.

و «الرئيس» Chet هو العنصر الأول الذى يتجمع حوله الأفراد الذين يكونون العصابة . هؤلاء «الرؤساء» قد ساعد الجو الإقطاعى على الإكثار منهم كما هيأت لهم الحروب الصليبية أن يتسع مجال نشاطهم . فنحن نجد روچيه دى فلور Roger de Flor فى أواخر القرن الثالث عشر من (الداوية) أو رجال المعبدين(١) فقرصانا فقائداً فى خدمة إمبراطور بيزنطة ، وهذا نموذج أولى لهؤلاء المغامرين الذين اتخذوا من الحرب حرفة لهم ، لقد قاتل فى جميع بلاد البلقان على رأس جنود من إقليم برشلونه وكسب لنفسه فى هذا القتال شهرة خالدة . وكانت الحرب ضد «الكفار» - يعنى المسلمين ! - ذريعة صالحة لأن يوجه هؤلاء المغامرون ضربات كبيرة فى بلاد الشرق .

وسوف يعمم هذا النظام فى الغرب الصراع الطويل بين ملكى فرنسا وانجلترا ثم إدخال نظام الرواتب تدفع للجند فى القرن الثالث عشر . فإلى جانب الجنود الإقطاعيين الذين يجلبون بمقتضى حق الزعيم Suzerain أهاب

---

(١) ظهرت فى أوربا منذ القرن العاشر حركة إصلاح دينى ترمى إلى إعادة الفضيلة المسيحية بإنشاء الأديرة والطوائف الدينية . ولما جاءت الحرب الصليبية كان ثمة فرق من الرهبان المحاربين قد تجمعوا فى طوائف أهمها التمبلار ex — templiers (ويسميهم العرب الداوية) نسبة إلى معبد (هيكل) سليمان حيث أقاموا ، ثم طائفة يسميهم العرب أيضا الاسبتارية Hospitaliers نسبة إلى مستشفى القديس يوحنا الذى بناه الايطاليون وأقام هؤلاء فيه (أنظر صلاح الدين الأيوبى وعصره للأستاذ فريد أبوحديد ص ١٠٤) .

ملوك فرنسا بالمرتزقة . فإن الأشراف الكبار أمثال دوق اللورين ودوق برابانت ولكسمبورج وكونت بورجونى وسافوا ودوفان فينا ، قد وضعوا أنفسهم ـ لقاء معاش مرتب ـ فى خدمة أسرة كابيت ، ذلك هو نموذج الانتقال من الفصل vassal إلى رئيس العصابة chef de bande .

وأدنى من هؤلاء السادة الأقوياء بكثير قواد متواضعون Capitaines رجال فقراء بصفة عامة ، نبلاء فى أخلاقهم gentilshommes قد عينوا أنفسهم ، وقاموا من تلقاء ذاتهم بتجنيد جماعات من الفرسان من كل مكان استطاعوا إليه سبيلا ، ومن كل الرجال الذين يجدونهم ، ثم يؤجرون خدماتهم غالية الملوكَ والأمراء . هؤلاء الرجال الذين لاوطن لهم ولاثروة ، الحرب عندهم هى الوسيلة الوحيدة للعيش . فإلى جانب الرواتب التى تجرى بنظام ، تجلب لهم الحرب فرص النهب والسلب ، وفدية النبلاء الأسرى . والسلم عندهم إذن هو البؤس . وإذا ما انتهت الحرب رسمياً فهم يستمرون فيها لحسابهم الخاص . تلك هى جمعيات القرن الرابع عشر الكبيرة .

تكونت أوليات هذه الجمعيات حول رؤساء من الانجليز جاءوا إلى فرنسا يقاتلون إلى جانب جيش إدوارد الثالث النظامى . يضاف إليهم عصابات نافار فى عهد شارل المنكود(١) . وبعد معاهدة برتنى Bretigny (١٣٦٠) تشتتت العصابات ولم يرجع إدوارد إلى انجلترا إلا بجيشه النظامى . أما الآخرون فقد اضطروا إلى البقاء فى فرنسا ونظموا أنفسهم للاستقرار فى

---

(١) Charles le Mauvais ملك نافار Navarre (١٣٣٢ — ١٣٨٧) حفيد لويس العاشر ، ومن الذين ساهموا فى إضعاف الملكية فى فرنسا ـ ولذا سمى المنكود ناصر اتيين مارسيل فى حرب المائة عام ثم عاد فحالف الانجليز وهزم جوسلان Guesclin جيوشه فى كوشريل Cocherel (المترجم)

هذه البلاد . وهكذا نجد هاوكود Hawkwood وچاك وين J.Wyn وفرانك هنكان F. Hennequin وجارسيو دى كاسترو G.de Gastro وغيرهم ممن كانت صفتهم فى الأصل قطاع طرق وميشان الصغير Petit Meschin وبريزبار Brisebarre وتروسفاش Troussevache وتايكول Taillecol يجرون وراءهم الرجال من كل البلاد يسلبون ، ويفتدون ، ويقصفون ، ويسبون الفتيات والغلمان ، ويصطحبون الباعة الجائلين ليعيدوا بيع المنقولات التى يأخذونها من الفلاحين وإليهم ، كما يصطحبون القساوسة للتراتيل الدينية والصلاة على الموتى . ولما هددت عصابة تارفينى Tards_Venus التى استولت على پون سانت اسبرى Pont-St-Esprit (٢٨ ديسمبر ١٣٦٠) بابا أفنيون : أعلن عليهم الحرب الصليبية واستعدى عليهم ملوك أوربا ، ثم استطاع أن يقنعهم بالذهاب لمقاتلة أهل فيكونتى فى ميلانو .

والحق أن المسألة لم تحل إلا فى اليوم الذى أصبح فيه الجيش الملكى من الأهمية بحيث يشمل هؤلاء المغامرين المتحمسين للحرب . ومع هذا فإنه إذا كانت الجمعيات الكبيرة قد اختفت بعد القرن الخامس عشر ؛ فإن وجود العصابات يمكن أن ينتشر فى فترات الاضطراب .

وكانت أرقام هذه العصابات متغيرة جداً . ففى موقعة برنييه Brignais كانت « جمعية » أرنو سيرفول Arnaud Cervole تشمل مائتى حامل رمح وأربعمائة حامل قوس ؛ أى ستمائة مقاتل ـ وهو مايعد «جمعية» كبيرة . ومن المحتمل أنه باللمة التى كانت تصحبها ، كانت أهم هذه العصابات تصل إلى ألفى رجل . والرعب الذى كانت تحدثه هذه العصابات وحده كاف لتفسير الأرقام الخيالية التى ذكرها المؤرخون .

هذا الفزع حاول ملوك فرنسا أن يضعوه موضع النسيان عن طريق

« خطابات التسليم lettres de remission » التى أعطوها الرؤساء عندما اضطروا إزاء زوال نظام نداء القرعة للجدد وتحت الطلب إلى استعمال «جمعيات» قطاع الطرق،وهكذا نشأ الارتباط بين العصابات والجيش الملكى.

٢ — العصابات الايطالية : كوندوتو والكوندوتيون :

عرفت إيطاليا الجنود المرتزقة فى كل الأزمان . فالنورمانديون الذين استقروا فى صقلية فى القرن الحادى عشر ، هم أصل المغامرين الذين كانوا فى خدمة أمراء بيزنطه ولمباردیا .وفى القرن الرابع عشر انسعت هذه الظاهرة لوجود ظروف مشابهة لتلك التى سادت فرنسا.فان غارات الملوك الأجانب (إمبراطور لكسمبورج هنرى السابع (١٣١٣) وملك هنغاريا لويس الأول المطالب بعرش نابولى)قد جلبت فى شبه الجزيرة سيلا من المحاربين لم يعودوا جيعهم إلى مسقط رءوسهم عندما انتهت الحملة التى جاءوا معها . وهكذا تظهر فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر أولى الجمعيات الكبيرة كجمعية الألمانى فرنز أورسلنجن Werner Urslingen الذى أطلق على نفسه اسم : « دوق فرنر ، رئيس الجمعية الكبرى ، عدو الله الرحمن الرحيم!» وكجمعية فرا موتريال دى موريال Fra Monreale de Moriale البروفنسى الفرنسكانى سابقاً الذى اتخذ اسم : « قائد الحرب ، وحامل لواء الكنيسة » ـ المالى الكبير الذى أجر جمعيته بعد هذا فى فينسيا نظير ١٥٠ ألف فلورين من الذهب .

ثم إن هذه العصابات التى نهبت فرنسا واصلت السير حتى إيطاليا تزاول عمليات السلب ، إلا أنه منذ ١٣٨٠ حدث تغير رئيسى:فان الأجانب يختفون شيئاً فشيئاً وتأخذ العصابات طابع إيطاليا الخاص وهذا هو حكم آل

كوندوتيرى Condottieri الذى استمر حتى حملة شارل الثامن سنة ١٤٩٤ ، حيث انحل بعد ذلك وانتهى عام ١٥٢٥ . وأى معرض للصور فريد فى نوعه من حيث الكثرة وإثارة الفضول كمعرض صور هؤلاء القواد : باندولفو مالاتستا Pandolfo Malatesta براتشيو دى مونتونى Braccio de Montone فرانشسكو بوسونى Francesco Bussone الملقب بكارمانيولا Carmagnola وخصوصاً أشهرهم جميعاً فرانشسكو سفورزا F. Sforza الذى أصبح دوق ميلانو سنة ١٤٥٠ ؟ إن صور هؤلاء القادة تطغى على تاريخ القارة كله فى القرن الخامس عشر .

والعصابات الإيطالية — فى اختلافها عن « الجمعيات الكبيرة » الأجنبية — لها طابع إقليمى معين . فالرئيس غالباً ما يكون أحد صغار الأشراف وهو الذى يجند رجاله من بين الأفصال والرعايا التابعين له . وإليه وحده ترجع فوائد المشروع بينما هو لايدين لرجاله إلا بالرواتب والمكافآت بين الحين والحين . والحق أن رواتب الجند كانت قد سادت إيطاليا هذه فى القرن الخامس عشر حيث نجد للاقتصاد النقدى هذا التقدم الذى نواجه معه البدايات الأولى للنظام الرأسمالى . وقد هيأ هذا للعصابات الإيطالية أن تظهر بطابع من التناسق قوى جداً ، كما قيض للرؤساء أن يزاولوا على الرجال سلطة أوسع .

والمبدأ العام أن التجنيد يتم بالتعاقد لأمد . والجمعية تتكون من عدد معينه من حاملى الرماح الذين يسمونهم هنا barbue نسبة إلى سمك البنى (البربوس) .

وأرقام هذه العصابات من الصعب تقديرها . فالبيانات التى أدلى بها المؤرخون خيالية . وأغلب الظن أن الجماعة قوامها مائة من حاملى القسى هى

المتوسط العادى . إذ معنى هذا ثلثمائة من الفرسان يمكن أن نضيف إليهم من مائة إلى مائتين من المشاة ـ إلى جانب الخدمة ، أى فى الجملة . . ٨ أو ألف رجل على أكثر تقدير .

والجمعية هذا تكوينها يؤجرها رئيسها لإحدى المدن بمقتضى عقد Condotta يحدد أمد الإجارة (وهو أقل من سنة على العموم) كما يحدد عدد الرجال الذين يجب أن تتكون منهم الجمعية ، والأجر الذى يتلقاه كل من المحاربين ، وتفاصيل الأسلحة ونظام دفع الرواتب ـ وغالبا أيضا ـ العدو الذى يجب مواجهته . ومن أمثلة ذلك العقد الذى أبرمه فى ٦ أكتوبر ١٣٨٤ الانجليزى هانكان تريشيل Hannequin Trichil مع فلورنس ؛ حيث أجر جمعيته ضد أى ملك كان عدا ملك انجلترا .

وكثيراً ما ادعى بعد مكيافيلى ـ أن حروب الكوندوتيرين (العصابات المأجورة) كانت « تمثيليات » ، وأن خصومهم كانوا معهم على اتفاق ـ فى السر ـ على أن يقوموا بهذه المناورات . وقد أتاحت دراسة المواقع الكبرى الحكم على هذا التاريخ . وهناك رأى تقليدى آخر ينسب إلى القواد الإيطاليين قدراً كبيراً من إحياء فن الحرب فى أواخر القرن الخامس عشر . إلا أن هذا إنما يرجع خصوصاً لنشاط المشاة التى أعاد لها مجدها السويسريون ، وإلى تقدم المدفعية التى مافتىء الإيطاليون يسخرون منها .

ومع هذا فإن شهرة الكوندوتيرين كبيرة جداً . وأحدهم : تادى دى فالبرنى Thadée de Valpergne الذى كان فى خدمة دوفان شارل هو أحد رفاق جان دارك ، وآخر : كوليون Colleone هو المسمى شارل الماكر Charles le Téméraire الذى أراد أن يكون له جيشاً حديثاً ، فصور كبار آل كوندوتيرى قد بقيت فى التاريخ أكثر مما بقيت ذكرى العصابات الايطالية المسلحة الأخرى فى جملتها ومما بقيت الجمعيات الكبرى فى فرنسا .

٣ ــ العصابات الألمانية فى حرب الثلاثين سنة :

فى ألمانيا ، فى مطلع القرن السابع عشر ، أتاح التقسيم السياسى وعدم وجود سلطة مركزية قوية ، الظروف الملائمة لاستمرار وجود «العصابات» .

وقد خلد شيلر Schiller صور فالنشتين Wallenstein أو فالدشتين Valdstein . هذا النبيل من بوهيميا الذى ألحقه فى صفوف الكوندوتيريين أستاذه فى علم الحرب القائد بوستا Général Busta تلميذ اسكندر فارنيز A . Farnèse الخالد فى سجل كبار رجال الحرب الإيطاليين فى القرن الخامس عشر . فبعد معركة الجبل الأبيض ، نجد فالنشتين ـ الذى كان قد حصل بثمن بخس على أراضى واسعة صودرت من الثوار ـ يعرض على الأمبراطور أن يجند له ٨٠٠٠ رجل ، وان يقودهم بأمره فى ألمانيا وهنغاريا وإيطاليا . هذا الجيش ما كان يكلف الأمبراطور شيئاً ؛ بل إن فالنشتين قد تعهد بتجنيده على نفقته وكان عليه أن يجرى أرزاقه ويقوم على العناية به ـ وذلك على حساب البلاد التى يحتلونها .

وفى يونيو ١٦٢٥ لقب فالنشتين بالقائد العام وحصل على إذن بالتجنيد وكان العقد الذى ربطه بفرديناند يجعل منه ضربا من « مقاول حرب » بدفتر « شروط ومواصفات » ؛ منها أن « كل الغنيمة للجندى ولكن نصفها يخصم من راتبه » . أما المدافع والمهمات التى تؤخذ من العدو فتكون للامبراطور . ولم يكن من المستطاع إشراك المدن الأخرى فى الحرب أو إطلاق سراح الأسرى من الأمراء والقواد إلا بإذن الأمبراطور . فكان من الضرورى إذن اتباع نظام معين منعاً لكثرة تخريب البلاد وبالتالى ضمانا للمستقبل . وحظر فالنشتين سلب خيول الفلاحين التى يعملون بها أو تخريب مزارعهم

حتى لا يتعطل الزرع . فلما أثقل كاهل الدولة عرف كيف ينتزع من أراضيه هو المؤن اللازمة ليبيعها غالية إلى الجنود .

وكما فى كل جيوش ألمانيا فى ذلك العهد ، كان الرجال يستخدمون لفصل أو سنة . وبعد كل موقعة كانت تسرح الفرق - فيما عدا تلك التى تلزم للقيام على حراسة الحاميات . أما حين تستمر الحرب طويلا - كما هى الحال فى حرب الثلاثين سنة - فقد كانت تتكون منها كتلة ثابتة تعيش على النهب والسلب فى انتظار الموقعة القادمة . والجيوش مكونة بطبيعة الحال من جنود من كل البلاد : لقد كنت تستطيع أن تحصى أكثر من عشر جنسيات فى الكتيبة الواحدة!

هذه الكتيبة ملك للقائد الذى دفع راتب جنودها . وكان فالنشتين بدوره يضمن صرف أتعابه مقدما . إلا أن بهذا تنشأ فيما بين القائد العام وضباطه روابط مصلحة مشتركة قوية جداً . فلا عجب إذن أن نرى أمثال هذه الفرق تجول من معسكر إلى آخر ، عارضة خدماتها للأجزل عطاء . وهكذا على أثر موت برنار دى فيمار Bernard de Weimar فى سنة ١٦٣٩ تنازع ريشيليو والامبراطور وأمير بفاريا هذه الفرق - منعمين على الضباط بالترقية وعلى الجنود بمزايا مالية . فكسب الجولة الكردينال ، وأقسم الضباط - وكلهم تقريباً من الألمان - أن يخدموا فرنسا فى أى مكان وضد أى عدو .

ولا يمتاز تكوين جيوش سانت امبير Saint - Empire عن الجيوش الملكية فى عهدها ، ومع هذا فإن فرق فالنشتين تتكون فى أساسها من المشاة . أما الفرسان والمدفعية فهما تافهان جداً .

٤ — الجيوش الصينية حتى شيانج كاى شيك

لم تعرف الصين منذ عهدها القديم جداً حتى عصر حركة « البعث الجديد »

التى قام بها المارشال شيانج كاى شيك نظاما آخر للجيش . فالحق أنه قبل سنة ١٩٣٠ لم يكن لهذه الدولة العريقة أى تقليد عسكرى . فان كافة حضارات وجميع فلسفات الصين لا يمكن أن تتمشى مع فكرة استعمال القوة . وشرف الحرب فكرة جوفاء خلو من المعنى عند أبناء السماء Les Celestes . فمنذ أزمان متقدمة جداً كان رجال الحرب فى الصين رجال عصابات (قطاع طرق) ونجد الكلمتين فى اللغة مترادفتين أحداهما للأخرى . وهناك مثل صينى يقول إذا إستطعت أن تصنع مسامير من الحديد من النوع الجيد فلن تستطيع أن تجعل من الرجال الأمناء جنوداً ! .

وتنطبق كلمة « جيش » فى الصين بصفة دائمة على كلمة « عصابة » سواء كانت فى خدمة سادة الإقطاع الذين هم حكام الأقاليم أو مجرد مغامرين . فإن البؤس يجمع بطبيعة الحال حول الأغنياء عملاء من فقراء القوم أو من المرتزقة المتقربين هم فى نفس الوقت خدمهم وجيشهم . والأرقام تتفاوت فيما بين بضع مئات من الأفراد إلى عشرين أو ثلاثين ألف رجل (إذا كنا بصدد حاكم مقاطعة غنى) . ومهما تكن أهميتها فقد كانت هذه الفرق تحمل أسم : فصيلة ، أو كتيبة ، أو جيش ، تبعاً لطموح رئيسها الذى كان يحمل : تماً لقب « جنرال » حتى ولو لم يكن قد لبس الزى العسكرى قط .

هذه العصابات من الواضح أنها كانت تنظم وتسلح با كثر الطرق شذوذاً عما كان يتوقف على إمكانيات الرئيس المالية ، وعلى سبيل الفخر والعناية بالمظهر اشترى بعضهم مواد حديثة : مدافع ودبابات بل وطائرات لم يكن يحسن إستعمالها القليلون جداً .

إلا أن إحراز المدفع كان وسيلة لتنمية المشاعر السلمية لدى العدو . وكان توزيع الرتب يتفاوت تبعاً لهوى الرئيس الذى يهب الدرجات للضباط

كما يوزع الأتاوات على محاسيبه وأقاربه الكثيرين ، كما أن الاستعانة بالمعلمين الأجانب وإرسال الضباط الشبان إلى مدارس أوربا وأمريكا العسكرية لم يغيرا كثيراً من هذه النظم التقليدية . فإن المسألة لم تكن مسألة تجديد ، بل كانت فى نظر الحاكم الحصول على « مظهر » كبير جداً .

وكانت الصين سنة ١٩٣٠ هى نفسها الصين ذات عصابات القرن الرابع عشر — إذا استثنينا التسليح ؛ فعرف شيانج كاى شيك كيف ينشىء جيشاً وطنياً .

الفصل الخامس

جيوش القوميات (١٧٩١ — ١٩١٤)

الثورة بداية مرحلة لاتقل أهمية فى تاريخ الجيش عنها فى تاريخ السياسة فإنه حتى ذلك الحين كانت الحروب تحمل طابع الأسرات . ملك يصطدم بملك آخر فيقاتله . أما جنود الثورة فهم يحاربون لأجل « الوطن » . وهكذا ينقلب « الولاء » للملك إلى « وطنية » ، وليس هذا الشعور شعوراً تلقائياً فحسب ، إذ أن الحرب قد عملت على إذكائه فى فرنسا أولا ثم فى كل مكان من أوربا على أثر الجيوش الفرنسية . وهكذا كان عجيباً أن ينقلب الأمر إلى الضد : فإن الثورة الفرنسية التى جاءت تدعى أنها عالمية شاملة فى دعوتها للحرية والإخاء والمساواة ، قد عملت على نشوء القوميات التى تضاربت طوال القرن التاسع عشر .

كما أن الصراع الطويل الذى دفع بالجمهورية الناشئة « وبالطغاة » إلى السلاح قد أسفر عنه تناقض آخر : فإن نظام القرعة Conscription [1] الذى لم يكد يعرف فى العهد القديم والذى حملت عليه كل دفاتر الشكوى ؛ سوف يصبح هو النظام الأساسى للخدمة العسكرية مما سيجعل للجيوش بالضبط طابعها القومى . وسوف يجد معنى المساواة فى هذا تحقيقه ، ولكن أحلام السلام الدائم سوف تودع خزانة الذكريات والأوهام .

---

(١) كلمة Conscription كلمة عامة معناها القيد أو التسجيل للجندية . ومن معانيها أيضاً التجنيد الإلزامى أو الخدمة العسكرية الإلزامية ، وكذلك نظام القرعة العسكرية بوصفه الوسيلة للحصول على العدد المطلوب من المجندين الإلزاميين .

ومن الآن سيكون للحروب طابعاً أكثر « شعبية » ، طابعاً هو فى الآن نفسه أكثر اتساعا وأكثر شمولا . وسيؤدى هبوب الشعوب بأسرها فيمابعد إلى « حرب كلية » بين « قوميات مسلحة » .

ولا يستطيع العامل السيكولوجى أو الأخلاقى أن يفسر وحده هذا التطور . إذ لا بد أن نقيم وزنا لعامل المصالح المادية الجديد ، فان الرأسمالية الحرة فى القرن التاسع عشر تخلق تجمعات خاصة (من نوع الترست trusts والكارتل cartels) تدفع بالدول نحو « قومية اقتصادية » فى السنوات الأولى من القرن العشرين . فتصبح كل دولة « قوة » ليس لها كيانها فقط من الناحية السياسية بل والاقتصادية . فاذا أضفنا إلى هذا التقدم العلمى الهائل الذى يمهد فى مجال التسليح لثورات الحرب العالمية الأولى ، فسوف نلمس فى القرن التاسع عشر هذا الخصب نشأة الجيوش الحديثة . إن العالم يسير فى نفس الوقت نحو التوسع والالتصاق . وفى كل الأزمان كانت الجيوش منفصلة عن الدولة اجتماعيا وسياسيا . إلا أنه منذ الآن تصبح كل دولة عالماً يزداد تعقيدا ، وتختلف الظروف فى كل منها . و « الجو » الخاص بها هـــذا هو ما يميز تطور الجيوش . ففى محيط هذه القوميات إذن يجب من الآن دراسة المجتمعات من الناحية العسكرية .

(ا) الجيش الفرنسى

وهو وليد الأحداث أولى من أن يكون تصميما من عمل الرجال . فانه لمـا اجتمع ممثلو الأمة فى مايو ١٧٨٩ كانت خطتهم — فيما يتعلق بالناحيــة العسكرية — سلبية خالصة : الاحتجاج على العقوبات البدنية ، والرشوة فى الدرجات والرتب ، وخصوصا الاقتراع فى الجندية . وكل هذا ألغته الجمعية

التأسيسية . ولكن الجيش ظل مرتزقا فحسب ، وتحت تصرف الملك أكثر مما كان فى أى عهد . بل إن لويس السادس عشر فكر مراراً فى استخدامه ضد الجمعية الوطنية : فى ٢٣ يونيو ١٧٨٩ ، ثم فى يوم هربه . ولما استقر عزم البورجوازية على تولى السلطة ، شعرت بالحاجة إلى أن توجد فى مواجهة جيش الملك قوة خاصة بها . فكان هذا هو الحرس الوطنى .

وقد نشأ الحرس الوطنى فى ثورة ١٤ يوليو . وكان غرضه الالتقاء بالفرق الأجنبية التى استدعاها الملك . واستسلم لويس السادس عشر . وأشرفت على العاصمة بلديتها ، وجمعيات الثورة ، التى أصبحت منذ ذلك الحين بمثابة جيشها الذى تكون من بين صفوف البرجوازية . فكأن الملك قد فقد باريس نهائيا . وفى أيام اكتوبر دخلها أسيراً . فانتصار الثورة إنما يرجع إلى حراب الحرس الوطنى . وإذ عهد اليهم مهمة الأمن والبوليس فى الشوارع ، فقد تكونت منهم ستون كتيبة (واحدة فى كل منطقة من باريس) مقسمة كل منها إلى ١٦ فصيلة ، فالمجموع ثلاثون ألف رجل . وكان من هؤلاء ٢٤ ألف متطوع . أما الستة الآلاف الآخرون فكانوا يتقاضون أجرا ويقيمون بالمعسكر وتتكون منهم قوة دائمة استخدمها لافاييت فيما بعد ليجعل منها « جيشا راقيا » مهمته أن يبقى على احترام « الدولة الرابعة » . وإليهم ضم دستور ١٧٩١ « المواطنين العاملين » فحسب وكلهم من الملاك . وفى الأقاليم ساد هذا الميل إلى البورجوازية ذاته : فدخل الحرس الوطنى بجملته فى الحركة الاتحادية .

وما زلنا حتى الآن بعيدين جدا عن الجيش الوطنى . ولكن فرق الملك قد فسد نظامها شيئا فشيئا خصوصا بسبب هجرة الضباط . حتى إنه فى سنة ١٧٩١ عندما بدأت تروج إشاعات الحرب ، كان الموقف العسكرى فى فرنسا

يرثى له : ١٢٠ ألف رجل فقط والتنظيمات واضحة العجز . وخطرت فكرة الاستعانة بالحرس الوطنى ولكن هجرت الفكرة . ثم كان لابد من العودة منها إلى نظام التجنيد الإلزامى الذى حملت عليه كافة السجلات ، لجند مائة ألف رجل بالاقتراع . وهؤلاء هم متطوعو ١٧٩١ . فمن مائة تسعة وستين كتيبة تحت الطلب أمكن تنظيم ستين . وكانت فرقا قليلة القيمة لا تشتبه بجيوش الحرب .

كانت الحرب تجرى فى فوضى . والجيش الجديد سوف تنشئه الضرورة . ففى ٢٢ يوليو ١٧٩٢ أعلن أن « الوطن فى خطر » فقررت الجمعية الوطنية رفع القوات المسلحة إلى ٤٥٠ ألف رجل ولجأت إلى الأقاليم لإكمال هذا النقص . فكان المتطوعون الجدد — متطوعو السنة ١ — لديهم من الحماس أكثر مما لهم من القيمة العسكرية . لم يكن ثمة فساد الفرق القديمة بل كان المستوى الخلقى أحسن . ولعل التنافس بين الزى الرمادى (زى رجال الجيش) والزى الأزرق (زى المتطوعين) هو مايفسر انتصارت ڤالمى Valmy وجيماب Jemmapes .

ومع ذلك بدت الحاجة منذ ذلك الحين إلى التقريب بين النوعين على مافى أصلهما من تفاوت . ففى فبراير ١٧٩٣ وبإزاء الموقف الداخلى والخارجى الذى يزداد خطرا (البوادر الأولى لحرب الفنديه Vendée) أصدرت الجمعية أمرها « بالضم » (أى ضم كتيبة من الجيش وكتيبتين من المتطوعين فى نصف لواء) وبتعبئة ٣٠٠ ألف رجل . وكان للأقاليم مطلق الحرية فى اختيار الطريقة التى ترجع إليها فى تجنيد الرجال المطلوب إلى كل منها تقديمهم . وهنا يظهر من جديد نظام التجنيد الإلزامى conscription وعرف بهذا الإسم ابتداء من أغسطس ١٧٩٣ . إلا أنه لكى يتحقق التجنيد

الجماعى ، أعيد نظام « الطلب للقرعة requisition ». فكان مرسوم ٢٣ أغسطس يعلن أنه : « ابتداء من اليوم وحتى يكون العدو قد تم طرده من بلاد الجمهورية الفرنسية، يعد الفرنسيون جميعا تحت الطلب للخدمة العسكرية كجنود فى الجيش . فالشبان يذهبون إلى القتال ، والمتزوجون يصنعون الأسلحة وينقلون العتاد والنساء يصنعن الخيام والملابس ويقمن بالتمريض فى المستشفيات، والأطفال يمزقون الملابس البالية خرقا صغيرة . والعجائز والشيوخ يتحاملون إلى الميادين ليلهبوا حماسة الجند ويثيروا كراهية الملوك ويوصوا بالاتحاد من أجل الجمهورية » .

هذا النص الآية فى البلاغة كان سنة صالحة مدة قرن ونصف من الزمان فهو — إذ يتجاوز بكثير مجرد الخدمه الإجبارية — يعلن التعبئة العامة « لوطن مسلح » وهو أكبر بكثير مما كانت تسمح به سلطة الدولة حينئذ على المواطنين ، حتى مع الإرهاب وممثلى الدولة القائمين به .

لهذا سوف يعتدل التجديد الثورى لهذه المبادىء من حيث التطبيق . فلن يطلب للتجنيد إلا غير المتزوجين فحسب ومن الثامنة عشرة إلى الخامسة والعشرين . وتمخض هذا عن ٤٥٠ ألف رجل فى ٥٤٣ كتيبة من تسع فصائل قوام كل منها ٨٦ إلى مائة رجل . ومنذ نهاية اكتوبر يكون التجنيد تقريبا قد انتهى .

حينئذ تكون الثورة قد بدأت فى المجال العسكرى ، ويكون الجيش الوطنى قد نشأ . وكان لابد من التنظيم ، وهذا ماقام به كارنو Carnot الذى كانت مهمته الأولى إقرار النظام ، فأقر النظام ، وأتم التوحيد الموضوعى الذى كان قد بدأ يتحقق منذ فبراير ٩٤ ، والحاصل : ٢٠٩ لواءات مشاة

ميـدان ، ٤٢ مشاه خفيفة (واللواء عدده حينئذ ٣٢٠٠ رجل) . ووصلت أرقام هذا الجيش من الناحية النظرية ٨٠٠ ألف جندى ، وهو مالم ير مثله من قبل كتلة بشرية .

وإصلاح آخر رئيسى هو المتعلق بتقسيم الجيش هذا التقسيم الذى وضع مبدؤه فى السنوات الأخيرة من العهد القديم ، والذى طبقه كارنو بتدبر . كانت الفرقة من الجيش تتكون من أربعة أنصـاف لواءات مشاة ، ونصف لواء فرسان ، وثمانية قطع مدفعية . وكل خمس أو ست فرق تكون جيشاً . وظلت المدفعية كما كانت عليه أيام جريبوفال Gribeauval ، ولكن لكى يجعلها أكثر تحركا ؛ وبناء على ما قرره مرسوم « التجنيد الجماعى » ، نظمت تعبئة صناعية حقيقية لتسليح وإمداد هذه الفرق . فكان على الحذائين أن يقوموا بتسليم عدد بعينه من الأحـــذية ، واستولت الحكومة على محاصيل الحبوب .

على أن القانون النهائى للتجنيد لم يمكن التصويت عليه إلا أيام السلم . كان لابد من الانتظار حتى يتقدم بهذا الاقتراح — بعد معركة كامبو فورميو Campo-Formio — المارشال جوردان وزير الحربية حينئذ (٥ سبتمبر ١٧٩٨) . وظل قانون القرعة العسكرية conscription هو المعمول به حتى نهاية عهد الامبراطورية . وبمقتضى هذا القانون كان جيش أيام السلم يتم التجنيد له بالقيد الاختيارى ، يكمله فى حالة الضرورة الاقتراع . وكان هـذا يشمل — دون إعفاء ما — الرجال من العشرين إلى الخامسة والعشرين ، وكانوا يطلبون على درجات بدءا بالأصغر سنا .

فأداة الغزو فى عهد نابليون إذن كانت قد صنعتها الثورة ، ووجهها الامبراطور توجيه الخبير وإن لم يعدلها إلا قليلا جداً ، وكيف كان يسمح

له الوقت حينئذ أن يجرى عليها التعديل ؟ لقد خفف نظام الاقتراع بدفع « البدلية » ، وكان عدد الرجال الذين يجندون كل سنة يحدده مجلس الشيوخ. وفيما بين سنتى ١٨٠٠ ، ١٨١٢ جند نابليون مليون ومائة ألف رجل (أى مايعادل ٣٦ ٪ من المقيدين) . واستمرت عملية الضم ، فكان المجندون الجدد يصبون فى الوحدات المقاتلة دون ثقافة سابقة . وظهرت الآلايات تحل من جديد محل انصاف اللواءات بما يتمشى مع تقاليد الجيش الملكى : فكان عدد المشاة منها ٩٠ آلاى ميدان و ٤٦ آلاى خفيف (١٨٠٣) . وبعد ذلك بعشر سنين بلغت الكتائب ٢٤٣ : ارتفعت الفرسان من ٨٠ إلى ٩٣ آلاى من المدرعين والفرسان الخفيفة وجنود الطليعة الأقوياء وحاملى البنادق والمماليك ذات الملابس الملونة . والمدفعية هى الأخرى ارتفعت أرقامها : فنى عهد القنصلية أعيد تنظيمها ، فتكونت لأول مرة آلايات مترجلة ، وست كتائب راكبة و ٨ كتائب لخدمة المدفعية . وفى سنه ١٨١٣ كان عددها قد تجاوز ٨٠ ألف رجل . وتنظيم « تنقلات » المدفعية هو أهم إصلاحات نابليون فى مجال الحرب . إذ كان يسمح بوجود مدفعية دائمة التحرك ، وهو عنصر أساسى فى تكتيك نابليون .

أما التسليح فقد ظل هو تسليح الثورة : المشاة سلاحها البندقية من طراز ١٧٧٧ التى تطلق أربع طلقات فى ٣ دقائق وتصل قدرتها فى الرمى إلى ٢٠٠ متر . وبقيت أسلحة المدفعية على ماكانت عليه فى عهد جريبوفال (القطع عيار ٤ ، ٨ ، ١٢) التى يصل هدفها نظرياً إلى ٣٠٠٠ متر ولكن تقل فى العمل إلى ١٥٠٠ مترا فقط . واضطرت سياسة القارة نابليون لن يزيد عدد جنوده باستمرار . فى موقعة أوسترلتز كان معه ٧٢ ألف رجل ، وفى واجرام ١٨٠ ألف . إلا أنه باضافة جيش أسبانيا وإيطاليا يرتفع العدد إلى ٥٢٠ ألف مقاتل و ٧٠٠ ألف تجرى تعبئتهم . ومنذ ذلك التاريخ تطرد

باستمرار زيادة الأرقام سواء فى المجندين تحت الطلب (٨٠ ألف إلى ١٢٠ ألف رجل) وفى طلب المقترعين الجدد المختلفى الأعمار (٢٠ - ٢٥) مقدما . فنجد «الجيش العظيم» (١٨١٢) تعداده ٧٠٠ ألف رجل منهم ٣٠٠ ألف من الفرنسيين و ١٨٠ ألف من الألمان ، ٣٠ ألف نمسوى ، ٢٠ ألف بروسى ، ٩٠ ألف بولونى ، ٣٢ ألف إيطالى ، ٤٨ ألف إيليرى (١) وإسبانى. هذه الكتل الضخمة مندمجة فى أسلحة الجيش المختلفة ومقسمة من اثنين إلى أربعة فرق من المشاة وفرقة من الفرسان الخفيفة . وإنما يرجع تاريخ هذه «الوحدة الكبيرة» (الفرقة division) - التى هى إحدى أسس الجيش الحديث - إلى معسكر أقيم فى بولونيا (١٨٠٣) .

لم يقلب نابليون إذن شيئا من أعمال الثورة ، فالجيش الامبراطورى - رغم وجود الجنود من مختلف البلاد التابعة - ظل جيشا وطنيا ، بل إنه فى اللحظات الحاسمة من عامى ١٨١٣ ، ١٨١٤ هيأ المجهود الحربى لظهور «الشعب المسلح» .

وفيما بين ١٨١٥ ، ١٨٧٠ كان النظام المعمول به هو نظام القرعة وقد أبقت قوانين ١٨١٨ ، ١٨٣٢ ، ١٨٦٨ على مبدأ شمول الخدمة الاجبارية. إلا أن عهدى البعث وعودة الملكية هما عهدا سلام ، والحاجة إلى الرجال فيهما ضئيلة ، ولذا لم يطلب للجندية إلا جزء فقط . وفى سنة ١٨١٨ قدر الملك جوفيون سان سير Gouvion Saint-Cyr العدد الكلى بمائتين وأربعين ألف رجل عن طريق تجنيد أربعين ألف سنويا يختارون بالقرعة . (وهذا هو الطلب l'appel) . وكان الاستبدال معترفا به ، ومدة الخدمة ست سنين ، وأبقى الملك سولت Soulte (١٨٣٢) على هذه الطريقة ، ولكنه ترك للحكومة مهمة

---

(١) إحدى مناطق البلقان الجبلية على بحر الادرياتيك اتحدت فى عهد الامبراطورية الأولى (١٨٠٩ — ١٨١٤) مع دلماشيا . وسكانها من السلاف . وعاصمتها ليباخ . (المترجم)

تحديد عدد من يتم قبولهم فى الفرز السنوى . ورفعت مدة الخدمة إلى سبع سنين. وفى سنة ١٨٤١ كان عدد الجيش ٣٠٠ ألف رجل . إلا أن طول مدة الخدمة واتباع نظام الاستبدال قد جعلا من هذا الجيش القومى فى ظاهره « جيشا حرفياً » لا يضم إلا الفدائيين أو المحتاجين .

وظلت الامبراطورية الثانية على هذه الحال ؛ ولكنها زادت طابع الارتزاق بقانون الاعفاء exonération (١٨٥٥) ؛ حيث كان يمكن التخلص من الخدمة العسكرية بدفع مبلغ إلى «خزينة أوقاف الجيش» يستعمل فى دفع رواتب المتطوعين . وفكر أيضاً فى ضرورة تعديل نظام التجنيد ، لأن الاستبدال لم يكن يأتى دائما إلا بعناصر أقل قيمة . والحق أن هذا الإصلاح لم يصبه التوفيق . فإن الجيش وقد اقتطع هكذا من الأمة بدأ يفقد مزيته ، وبانطوائه على نفسه فى الوقت ذاته انحدر إلى هوة من التفاهة هى التى تمخضت عنها مصائب سنة ١٨٧٠. فلم تتردد السلطات فى اعتبار الخدمة العسكرية من بين النكبات التى يجب أن تتفادى بها هذه الأخطار ، إلا أن تدليل السلطات للجيش فى عهد نابليون الثالث ـ حين كان أقوى سند لها ـ قد أفقد الجيش الحرفى فى فرنسا مكانته كما لم يفقدها من قبل .

على أن ذكرى الجيش القومى الذى نبع من الثورة لم تكن مع هذا قد نسيت . فقد ظلت قائمة فى شخص «الحرس الوطنى» الذى كان قد أعاد تنظيمه خلال حكم المائة يوم كارنو Carnot ولم يحل إلا فى سنة ١٨٢٧ ، حله شارل العاشر بسبب طابعه « البورجوازى » جداً . وهو عينه السبب الذى من أجله بعث سنة ١٨٣١ (قانون ٢٢ مارس) . وإذ كان لا يجند به إلا الذين يدفعون ضريبة معينة، فقد اتخذ طابع الجيش الراقى Milice de classe، وإن كان عليه فى حالة الخلاف «أن يتلو جيش الميدان فى الدفاع عن البلاد وحدودها» وبصفة

عامة كان رجاله يكونون «الاحتياطي» في وقت الحرب. وقد أهملهم الامبراطور حتى ١٨٦٨ وهو التاريخ الذى فيه أعيد تنظيمهم تحت اسم « منظمات الحرس الوطنى » لـكى ينتظم الرجال الذين لم يطلبوا للجيش ويقوى الجيش العامل فى حالة الضرورة. وكان لابد أن يظهر غمبتا Gambetta ليدفع به إلى القتال بعد انهيار الجيش الإمبراطوري .

فالفترة الطويلة التى تمتد فيما بين سقوط نابليون الأول وسقوط نابليون الثالث قليلة الأهمية من الناحية العسكرية ، إذ يحف بها كارثتان عظيمتان . ومع هذا فقد مرت بالجيش فترات لامعة ، أثناء حملات حروب القرم ؛ وإيطاليا ، والمكسيك ؛ لامعة أكثر منها عصيبة. ولـكن عهد الملكية الموسوم بالإتاوة Monarchie censitaire قد عمل ـ فى هدوء وكتمان ـ عملا أحسن : فأنشأ جوفيون سان سير سلاح المهمات وهيئة أركان الحرب ومجلس الحرب الأعلى . كما أعاد تنظيم المدفعية الجنرال فاليه Valée الذى جمع سريةمن المدفعية وأخرى من الناقلات ـ مكلفة بنقلها لتتكون منهما «بطارية» بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، بينما قنع نابليون الثالث بتعديلات أدخلها على التسليح : البندقية ذات الماسورة المشخنة (١٨٥٧) وذات الإبرة التى اخترعها شاسبو Chassepot (١٨٦٦) ثم المدفع ذى الماسورة المشخنة منذ ١٨٥٨ .

وكانت ١٨٧٠ سنة عصيبة استدعت وثبة وطنية . فرأينا من آلايات الميدان ، والحرس الوطنى ، والمدنيين المعبئين ، والهيئات الحرة الفرنسية خمسة وخمسين ألف رجل فى الجملة يهبون استجابة لنداء غمبتا . إلا أن الحرس الوطنى باتحاده مع جمعية الثورة التى كانت قد أنشئت حينئذ التى معها فى باريس وفى الأقاليم فى أغسطس ١٨٧١ . وتم تجديد الجيش إذن : تسيطر عليه ذكريات هذه الأيام المحزنة . فضغط طويلا ؛ بما جعل للمشكلة العسكرية من مظهر سياسى

خالص . ومنذ ذلك الحين وجدنا فى الجيش رأى «حزب اليمين» ورأى «اليساريين» فى استقلال أغلب الأحيان عن كل اعتبار فنى . وهكذا نشهد فيما بين ١٨٧١ و ١٩١٤ صراعا بين أنصار «الجيش المحترف» و«الشعب المسلح» (إذ نشأت الكلمة منذ ذلك الحين قبل أن تظهر الفكرة ذاتها). إلا أن الأحداث حينئذ ـ وخصوصاً تسليح ألمانيا ـ قد فرضت حلولا بالرغم من الخلافات فى الرأى. فأعلن قانون ١٨٧٢ فرض الخدمة الإجبارية على الجميع بأشخاصهم دون استبدال ما . ولكن لما كان الرقم محدودا ولا يتجاوز ٤٠٠ ألف رجل ، فقد كان الاقتراع السنوى مقسما إلى قسمين ،والاختيار يتم بسحب القرعة : فواحد من القسمين يقوم بالخدمة العسكرية لمدة سنة ، والآخر لخمس سنين ، وكانت الإعفاءات منه عديدة .

كان هذا إذن انتصارا لفظياً لأنصار الكتل المسلحة ، وفى الحقيقة استمراراً لنظام يجاور نظام الجيش المحترف الذى نصب تيير Thiers نفسه للدفاع عنه بحرارة . ولاشتداد الهجوم على هذا القانون منذ البدء بسبب عدم المساواة فى التكاليف التى كان يفرضها على المواطنين . فقد عدل فى سنة ١٨٨٩ وفى هذا التاريخ أصبحت الخدمة العسكرية بحق شاملة . فكان جميع المواطنين يطلبون لثلاث سنين عدا وحيدى الأسرة وحاملى دبلومات معينة . وهؤلاء يخدمون لمدة سنة (قانون فريسينيه) وهو رجوع إلى نظام الجيش القومى الحقيقى ، فى احتفال فرنسا بالعيد القومى للثورة . وثمة تعديل أخير (١٩٠٥) يخفض الخدمة العسكرية إلى سنتين ليجعلها متساوية بالنسبة للجميع . ولكن الموقف الدولى أجبر فرنسا على رفع المدة إلى ثلاث سنين (وذلك بقانون ٧ أغسطس ١٩١٣) ، وفى هذا التاريخ بلغت أرقام (فترة السلم) ٧٦٠ ألف رجل .

فحقبة الأربعة والأربعين سنة الطويلة هذه (١٨٧٠ ـ ١٩١٤) قد استغلها

الجيش جيدا إذ تناوله التجديد التام فى كافة نواحيه . فوضع قانون ١٨٧٣ أسس التنظيم العسكرى : إنشاء ١٨ فيلق كل منها تنقسم إلى فرقتين ؛ وتنظيم كل فرقة عبارة عن أربع آلايات مشاة ولواء فرسان ولواء مدفعية وكتيبة مهندسين وكتيبة ناقلات . كما أعيد تنظيم القيادة والتعليم العالى بانشاء مدرسة أركان الحرب العامة فى ١٨٩٠ وباعادة تكوين مجلس الحرب الأعلى فى سنة ١٨٧٢ والكلية الحربية ١٨٨٠ .

وساير التسليح التقدم العلمى ، ففى سنة ١٨٨٦ كان المشاة مزودين ببندقية ليبل Le be أول سلاح سريع الطلقات (بدون حاجة إلى حشوه كل مرة) أدخلت عليه فيما بعد تحسينات كثيرة . كما أن المدفعية قد تغيرت من أساسها تماماً . ففى سنة ١٨٧٣ ظهرت أول مدافع تعمر من الخلف (المؤخرة) وفى ١٨٧٥ ظهرت أول قطعة مصنوعة من الصلب (بدلا من البرنز) ثم أخيراً فى سنة ١٨٩٣ يظهر مدفع (٧٥ مليمتر) المشهور ـ الذى كانت الثقة فيه بحيث تؤدى إلى إهمال المدفعية الثقيلة تماماً . وفى سنة ١٩١٤ لم يكن ثمة ـ فى الجملة ـ غير خمس آلايات ثقيلة مزودة بأسلحة قديمة . وأخيراً فانه منذ ظهرت السيارة والطائرة تعلق الجيش بهما . فرأينا فى سنه ١٩١٠ « تفتيشاً دائماً للطيران الشراعى » ملحقاً بسلاح المهندسين . وفى سنة ١٩١٤ كانت فرنسا تحوز ثلاثه وعشرين سرباً وخمس أسراب استكشاف ، واثنى عشر جماعة من المناطيد المعلقة (الثابتة) .

هذا هو الجيش القومى بحق الذى أعده جوفر Joffre ليحقق به خطة التعبئة رقم ١٧ فى أغسطس ١٩١٤ . إذ دبر تجهيز ٩٤ فرقة من الجيش بلغت جملتها مليون و٨٦٥ ألف مقاتل . وهو رقم يتجاوز بكثير نظام « التعبئة العامة » فنحن هنا على أعتاب نظام « الشعب المسلح » .

٢ — الجيش الألمانى

الجيش الألمانى امتداد للجيش البروسى بحيث أن سنة ١٨٧٠ لا يمكن أن تعد فاصلا فى التاريخ العسكرى لألمانيا . فقد انتظم هذا الجيش ـ كما انتظمت الامبراطورية ـ على النمط البروسى .

لقد حددت هزيمة سنة ١٨٠٦ عدد الجيش الألمانى بمائتين وأربعين ألف رجل دون أن يتغير النظام العسكرى الذى يضطلع فيه الملك بالقيادة Roi.Sergent فلا زال ثمة نظام « القرى » والأقاليم . كما لا يزال نظام الإعفاءات ، وإن كان تجنيد الأجانب قد قضى عليه ، والتمرين المعروف باسم Krumper (أى التعليم السريع فى ظرف شهر لجنود يحل محلهم آخرون مباشرة) قد أعطى لهذا الجيش أساسا قوميا إلى حد كبير . وليس إلا فى سنة ١٨١٣ ـ خلال حرب التحرير ـ حيث أخذ بنظام الخدمة العسكرية الإجبارية كاجراء ثورى . بدأ به الجنرال « يورك » حاكم بروسيا الغربية . فقد استدعى الرجال من سن الثامنة عشرة إلى الأربعين ليكونوا وحدات الجيش الإقليمى Landwehr بينما كون من غير المنضمين (من سن الثامنة عشرة إلى الستين) جيش الهجوم Landsturm وقد رسم شارنهورست Scharnhorst للملك هذا النظام ، وبه صدر أمر ٩ فبراير ١٨١٣ الذى أمكن به جمع ٢٥٠ ألف رجل . وهو بالنسبة لبلد عدد سكانه ٥ مليون مجهود يفوق بكثير « التعبئة العامة » سنة ١٧٩٣ .

وقد أدى السلم إلى نقص هذا العدد . ومع هذا ظل الجيش البروسى جيشا قوميا . وأبقى قانون ٣ سبتمبر ١٨١٣ على الخدمة العسكرية الإجبارية ـ تماماً كقانون جوفيون سان سير فى فرنسا سنة ١٨١٨ ، والفرق بينهما فقط إنما هو فى تنظيم الاحتياطى ، مما جعل الجيش البروسى ميزة

جدية الخدمة الإجبارية ورفع عنه فى الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨٧٠ كل طابع احترافى . فكل شخص من الرعايا البروسيين فى سن العشرين خاضع لواجبات عسكرية إجبارية مدتها ثلاثون سنة موزعة هكذا : ٣ سنوات فى الجيش العامل، سنتان احتياطى، ست سنوات فى الجيش المحلى Landwehr (الدفاعى) دفعة أولى ، و٧ سنوات فى نفس هذا الجيش دفعة ثانية ، ثم عشر سنوات فى جيش الهجوم Landsturm . والجيش الدفاعى (الإقليمى أو المحلى) فى الدفعة الأولى يكمل الوحدات الكبرى فى وقت السلم ، وهو جزء من جيش الغزو ، بينما الدفعة الثانية مجالها حراسة الأماكن . أما جيش الهجوم فلم يكن يستدعى إلا فى حالة الغزو . وكان اختلاط فرق الجيش العامل وجيش الدفاع الإقليمى أثناء التعبئة مما يمكن تلافيه .

وظل هذا التنظيم الأساسى حتى سنة ١٩١٤ مع تحويرات فى التفاصيل . وأخص ماتفصح عنه هذه التحويرات الزيادة المستمرة فى أرقام السلم ؛ تلك الأرقام التى طفرت من ١٢٥ ألف رجل سنة ١٨١٦ إلى ٣٠٠ ألف سنة ١٨٦٦ .

ولما عين الإمبراطور وزيره بسمارك حامل أختامه وأراد له أن يحمل البرلمان على الإصلاح العسكرى ١٨٥٩ — ١٨٦٠ ، استطاع هذا أن يتأدى إلى خطط سياسية كثيرة . فى سنة ١٨٦٦ وجه إلى النمسا ٦٦٢ ألف جندى و ٨٤٠ مدفعاً . وفى سنة ١٨٧٠ سحق جيش نابليون الثالث بجيش غزو قوامه ٦٩٧ ألف رجل يمثلون مليون و ١٦٨ ألف فى حالة تعبئة وبمدفعية قدرها ٢٠٥٠ مدفعاً .

كما أن الجيش البروسى كان قد اضطلع بمجهود تنظيمى ضخم تمثل منذ حوالى سنة ١٨٧٠ فى طابعه الحديث الذى تجلى بوضوح . فمنذ ١٨١٤ كان

ينتظم أسلحة الجيش الحديث المختلفة. وتنوع تركيب هذه الأسلحة من حيث زيادة عدد الفرسان ـ التي انتظمت فرقاً منذ سنة ١٨٥١، والمدفعية التي تكونت منها كتيبة من ٩٦ قطعة . هذه الوحدة الكبيرة التي نظمت على أساس التخصص الإقليمي كانت تهيء للجيش في وقت الحرب التصميمات المناسبة كما كانت تسهل عمليات تحركه . وقد ظهر تفوقها وامتيازها سنة ١٨٧٠ . فقد تحرك الجيش البروسي بكل نظامه وكامل معداته بين يومي ١٦ و٢٤ يوليو بينما تحركت فرنسا ـ التي كانت قد هجرت هذه الوحدة ـ في فوضى تامة .

وكان العتاد الحربي هو الآخر يمثل تفوقاً ملحوظاً . فمنذ ١٨٥٨ كان لدى بروسيا مدافع تعمر من المؤخرة ، وفي العام التالي جرى صنع ٣٠٠ مدفع عيار ٩٠ مليمتر . وبذا كانت مدفعية بروسيا تسبق المدفعية الفرنسية بخمس عشرة سنة . ومنذ ذلك الحين تقرر أن يتبع التلغراف والسكك الحديدية في حالة التعبئة العسكرية رئيس هيئة أركان حرب الجيش . ونحن نعلم كيف استطاع فون مولتكه Von Moltke أن يسخر شبكة السكك الحديدية تسخيراً رائعاً يتحقق معه تجميع وحدات الجيش . فقد تم نقلها فيما بين ٢٤ يوليو و٥ أغسطس على تسع خطوط مختلفة يسير عليها من ١٢ إلى ١٨ قطاراً في اليوم . وأخيراً فمنذ ١٨٥٨ كلف مكتب مركزي خاص بأن يدرس في وقت السلم مسائل الإمداد والنقل .

وقد نظم جيش ألمانيا سنة ١٨٧١ على النمط البروسي بمقتضى الفصل الحادي عشر من دستور الإمبراطورية . كان على الألمان جميعاً أن يقوموا بالخدمة العسكرية اثنتي عشرة سنة . ثلاثة في الجيش العامل ، وأربعة في الاحتياطي وخمسة في جيش الدفاع المحلي . والعدد الكلي يحدده لسبع سنين مجلس الريشتساغ . وتاريخ الرخ الثاني (الإمبراطورية الثانية) ملىء كله

بالمساومات المستمرة بين أمين الملك والأحزاب لكى ينتزع منها الزيادة فى الاعتمادات اللازمة لسياسة التوسع المستمرة فى الطموح التى رسمها بسمارك ثم من بعده غليوم الثانى . وهكذا رأينا أرقام السلم ترتفع من ٣٥٩ ألف رجل فى سنة ١٨٧٢ إلى ٦٧٨ ألف سنة ١٩١٤ . وكان جيش تحت الطلب يزيد بطبيعة الحال بنفس هذه النسبة فيرتفع من مليون وأربعمائة ألف سنة ١٨٧١ إلى ٣ مليون و٨٢٢ ألف سنة ١٩١٤ .

وتعهدت هيئة أركان الحرب الألمانية بالاستمرار فى إطراد التقدم الذى كانت تضطلع به هيئة أركان الحرب البروسية ، ففى سنه ١٨٩٩ أعيد تنظيم المدفعية تنظيما كاملا . فأصبحت كل فرقة منها تشمل آلايين من المدفعية (٧٢ قطعة عيار ٧٧ مليمتر سريعة الطلقات) كما أن كل أسلحة الجيش قد زودت بالمدفعية الثقيلة : قاذفات قنابل عيار ١٥٠ ومدافع الهاون الثقيلة عيار ٢١٠ . هذه المدفعية الثقيلة هى التى سوف تضمن أولى انتصارات سنة ١٩١٤ وفى سنة ١٨٩٩ ظهرت أولى المدافع الرشاشة فى فرق الفرسان . فكان لكل فرقة وحدتها . كما سلم هذا السلاح للمشاة ابتداء من ١٩٠٩ ، وفى سنة ١٩١١ كان بالجيش الألمانى ١٠٧ سرية كل منها ذات ستة مدافع رشاشة . وكانت أهمية نقل الإمدادات قد فهمت منذ زمن طويل . فأنشئت فى سنة ١٩٠٥ وحدة لاسلكى . وبعد سنتين كان لدى كل فرقة مخابرات واحدة منها واستأثرت الطائرة أخيراً باهتمام هيئة أركان الحرب ، فظهر أول الأسراب سنه ١٩٠٧ . فبعتاده الحديث جداً وأرقامه التى تفوق تفوقاً محسوساً أرقام الجيش الفرنسى . كان جيش ألمانيا القوى أدنى هو أيضاً إلى أن يكون « شعباً مسلحاً » .

٣ – الجيش الروسى

لم تعرف روسيا حتى القرن السابع عشر جيشاً منظما . وإذا لزم الأمر كان القيصر يجند « رجال الخدمة العسكرية » من بين عبيده ، يضاف إليهم من يسمون Streltzi أى « الرماة » الذين كانوا يكونون منذ إيفان المرعب Ivan le terrible طبقة من الجنود الوراثيين ، وكذلك القوزاق Cosaques (الرجال الأحرار بلغة التتر) الذين تآخوا مع الروس منذ القرن السادس عشر . وفى عهد ميشيل رومانوف (١٦١٣ — ١٦٤٥) أصبح الجيش دائماً ، وذلك بانشاء كتائب من الأجانب (خصوصاً الانجليز والألمان) واتخذ طابعاً ملكياً واضحاً فى عهد بطرس الأكبر الذى جعل من الكتيبتين اللتين كان يلعب بهما الحرب أثناء طفولته نواة الجيش الجديد . والخدمة العسكرية الإجبارية قائمة ، ولكنها لاتقع إلا على عاتق الأرقاء .

وسوف يحتفظ الجيش الروسى خلال قرن ونصف من الزمان بهذا الطابع «طابع العهد القديم». كانت الخدمة العسكرية تستمر خمسة وعشرين سنة . فكان الكل يتهربون إزاء هذه الحالة خصوصا وأن النظام المقتبس عن الجيش البروسى فوق هذا كان صارما . والواقع أن هذا هو مذهب الجيش المحترف . وفى سنة ١٨٧٤ رسم الاصلاح الذى قام به مليوتين Milioutine الخدمة العسكريةالإجباريةووضع بداية الجيش الوطنى فى روسيا. فالمجندون يطلبون للقرعة حتى يصل المقترعون إلى عدد بعينه من الرجال المطلوبين يحدد كل سنة . وفضلاً عن هذا كان المعفون (وحيد الأسرة ، رجال الدين . . . الخ) عددهم كبير ، ومدة الخدمة ست سنين فى الجيش العامل

---

(١) هو إيفان الرابع ملك روسيا (١٥٣٣ — ١٥٨٤) أول من لقب بالقيصر . وسمى فوق هذا باسم « قائد البلاد الروسية الأعظم » (المترجم)

وتسعة فى الاحتياطى وخمسة فى الجيش المحلى . وتنقص مدة الخدمة إلى ستة شهور لحاملى شهادات معينة . وفى سنة ١٩٠٦، فى اليوم التالى لحرب منشوريا ردت مدة الخدمة إلى أربع سنين كما قسمت مدة الاحتياطى إلى « دفعتين » متساويتين والرجال الذين كان يجرى تجنيدهم بهذه الطريقة سنويا يبلغون ٤٢٠ ألف رجل . إلا أن النقص (لكثرة المعفين والمعاقبين) كان كبيراً جداً . ولم يكن المجندون يمثلون أكثر من ٣٤٪ من المقيدين (يقابله فى فرنسا ٤٨٪) وفى ذلك الحين كانت روسيا تستطيع أن تدفع إلى الحرب فى أوربا بمليون ٩٥٠ ألف مقاتل . وظل عدد المجندين يتزايد بنظام حتى ١٩١٤ حين استطاعت روسيا أن تنزل إلى الميدان ثلاثة ملايين من الرجال .

وبرزت أمام القيصر مشكلة خاصة ، ونعنى بها مشكلة تجنيد الأجناس الأخرى من غير الروس ، فقد كان الجيش دائما الأداة الرئيسية لتنفيذ سياسة طبع الحلفاء بالطابع الروسى . وكانت الحكومة ترتبط بأن تحتفظ فى كل سلاح من الجيش بالنسبة بين الروس وغيرهم من الأجناس الأخرى الذين وجدوا فى داخل البلاد جميعها (وهى نسبة الربع) فكان بروز العنصر الروسى بهذا محققا حتى فى داخل الفرق البولونية والقوقازية ذاتها . ومشكلة أخرى هى وجود القوزاق Les Cosaques ففى سنه ١٨٧١ فقط أدخلوا فى الجيش النظامى بواقع آلاى لكل فرقة فى الفرسان ، أما بقيتهم فكانوا يكونون فرقا ذاتية خاصة تجنيدها إقليمى صرف ، فكانت خدمة رجال الريف hommes da lo steppe هؤلاء أطول وفضلا عن هذا كان عليهم أن يقوموا بامداد أنفسهم وإعداد دابتهم .

وكان الجيش الروسى مقسما على مناطق عسكرية يقع عبؤها على عاتق الحكومات وتشمل من فيلقين إلى خمسة فيالق وهذه تشمل بدورها فرقتى مشاة وفرقة فرسان ولوائين من المدفعية . وكانت الفرقة قوامها أربع آلايات.

وفى كل آلاى أربع كتائب . ومنذ سنة ١٩٠٩ كان لكل آلاى مدفعية جماعة من ٨ مدافع رشاشة كما كان كل فيلق فى الجيش مزودا بمائة واثنتى عشرة قطعة حربية ـ ولكن العتاد كان قديما نوعاً ما (١٩٠٢) . وفى بداية الحرب كان الجيش الروسى ـ على عراقة تقاليده فى التفوق من حيث المدفعية ـ تنقصه المدافع الثقيلة .

٤ ـــ الجيش الإيطالى

كان جيش سردينيا فى عهد كافور أداة الوحدة الإيطالية الكبرى . وعن هذا الجيش نشأ جيش مملكة إيطاليا القومى . وقد نظمه فيما بين سنتى ١٨٧٠ و١٨٧٥ الجنرال ريكوتى Ricotti على غرار الجيش الألمانى . فأعلنت إذن الخدمة العسكرية الإجبارية . ولم تسمح الزيادة السريعة فى السكان (الذين زادوا من ٢٦ مليون إلى ٣٥ مليون نسمة فيما بين سنتى ١٨٧٠ و ١٩١٤) بتجنيد كل الرجال تحت الطلب . كما أن الموارد المالية لم تكن تكفى لذلك . وقدر قانون ١٨٩٧ أن مدة الخدمة ثلاث سنين وعدد الرجال ٢٢٥ ألف رجل . وفى سنة ١٩٠٧ قللت مدة الخدمة إلى سنتين ، فإذا أضفنا إلى هذا أن الهجرة الخارجية كانت تضيع على الدولة نسبة ٨ إلى ١٠ فى المائة من الرجال تحت الطلب ، فقد أمكن إذن تجنيد الباقين جميعاً (ولندخل فى حسابنا أيضاً حالات الإعفاء الكثيرة لرجال الدين ووحيدى الأسرة ... !) .

ولكى يفيد فى توحيد البلاد كان توزيع « المقيدين للخدمة » يتم فى محيط الأمة بكاملها . فكانت الوحدات المحلية فى منطقة ما تستقبل مجندى جهة أخرى من البلاد ثم يتبادلون المراكز (الحاميات) بعد بضع سنوات. وقسمت البلاد إلى ١٢ منطقة فى كل منها أحد فيالق الجيش . إلا أنه على

عكس ما كان فى فرنسا وألمانيا ؛ كانت الحاميات فى وقت السلم لاترى إلى
إنشاء وحدات حقيقية كبيرة . فبعض الأقاليم التى فيها حاميات عسكرية
لم يكن بها فرسان ، والبعض الآخر ليس به مدفعية . فلم تكن إيطاليا إذن
تعرف إنشاء هذه الوحدات مع أنها وحدها التى تسمح بالتحركات السريعة.
ووصلت الأرقام الكلية للجيش المعبأ ليلة الحرب العظمى إلى مليون و ٨٠٠
ألف رجل منهم أكثر من مليون مقاتل .

وكان تسليح المشاة ببندقية مامليخر كوركانو Mamlicher Corcano
السريعة الطلقات والمدافع الرشاشة ماكسيم Maxim (اثنان فقط لكل آلاى)
عائلا لما كانت عليه الحال فى جيوش أوربا الأخرى . أما المدفعية فعلى العكس
كانت قليلة القيمة ، ولكن أعيد تنظيمها تماماً منذ سنة ١٩١٠ . فأمدها
كرب Krupp بالقطع عيار ٧٧ . كان الطيران من الناحية العملية لاوجود
له ، ولكن الجيش الإيطالى كان فخوراً بطائراته المطاردة .

ولم يكن لهذا الجيش تقاليد . وظلت روحه المعنوية ضعيفة أو عادية .
فكان الشعب ينفر من الخدمة العسكرية كما كان يحتقر الضباط . وكانت
تجربة الحرب العظمى إذن نذيراً خاصا به شديد الخطر عليه .

الفصل السادس

الجيوش المحترفة

فى مقابل كتل الجيش القومى توجد فرق الجيش المحترف القليلة العدد فقد عرفت فرنسا ـ كما رأينا ـ هذا النظام الأخير فى الواقع ـ إن لم تكن عرفته من الناحية القانونية ـ فى عهد الامبراطورية الثانية . ومنذ ذلك الحين تأرجح رجال السياسة والعسكريون فى هذه المسألة : الجيش القومى أم الجيش الحرفى . ولأسباب سياسية (ولكى لا يسلح جنود بلدية باريس) Communards اختار تيير Thiers الحل الثانى . أما فى أيامنا هذه فيقوم الترجيح بالأحرى على أسباب فنية . فالطابع العلمى أكثر الذى تمتاز به الحروب الحديثة يضع الفنيين من المتخصصين فى المقام الأول . ولا يستطيع أن يكون كذلك إلا الرجال الذين يخدمون أمدا طويلا . تلك هى نظرية الجنرال دى جول .

ونقترح موضوعاً للدراسة فى هذا الصدد البلاد الأنجلوسكسونية التى جرت تقاليدها على معاداة الخدمة العسكرية الإجبارية .

١ — الجيش الانجليزى

كانت انجلترا حتى يناير ١٩١٦ تنفر من نظام التجنيد الاجبارى Conscription. وتعجل إلغاءه بمجرد أن تنتهى الحرب العظمى . وارتفعت بعض الأصوات فيما وراء المانش (منذ ١٩٣٥) تطالب باعادة هذا النظام

ولـكن الرأى العام لم يكن مستعدا لأن يصغى إلى شىء من هذا . فـكان لابد أن تصبح الحرب وشيكة حتى تقوم إجراءات الاستعداد . وهكذا ظهر قانون ٢٥ مايو ١٩٣٩ خاصاً بالقوات الاحتياطية والمساعدة . وأخيراً أعيد نظام القرعة فى أول سبتمبر ١٩٣٩ عندما هاجمت الفرق الهتلرية بولونيا . ولايزال الأنجليز الآن أعداء الخدمة العسكرية الإجبارية . وبعض الزعماء العسكريين فى بريطانيا العظمى ـ كالمارشال مونتجومرى ـ لايخفون تفضيلهم للنظام الذى درجت عليه تقاليدهم .

والجيش الإنجليزى مزدوج . فهو يشمل الجيش النظامى والجيش الاقليمى . هذا الأخير الذى كان يسمى فيما مضى الجيش المحلى Milice كان يجند بالاقتراع حتى سنة ١٨٢٩ ثم بالتعاقد الاختيارى لمدة ست سنين . وكمبدأ لا يقوم الجيش الإقليمى بالخدمة إلا فى انجلترا . وفى سنة ١٩٣٩ كان هذا الجيش المحلى يبلغ فى مجموعه ١٣٥ ألف رجل . أما الجيش النظامى فهو « جيش مستعمرات » بالمعنى الصحيح ، وهذا هو طابعه الخاص » وفى مطلع هذا القرن كتب أحد المؤلفين إن « حاميات انجلترا ليست إلا حجرات انتظار ملحقة بمحطات ركوب السفن » . كان آلاى المشاة فى الواقع يتكون من كتيبتين : واحدة فى الداخل والأخرى بالخارج . مهمة الأولى تلقى المجندين وإعدادهم وتعليمهم . أما الأخرى فيقوم مجال خدمتها بعيداً ـ وهذا نظام كاردويل Cardwell . والكتيبتان ـ كلتاهما غريبة على الأخرى ـ لم تكونا لتلتقيا قط ، مالم يكن ذلك بمحض الصدفة : عندما تلتقى أحداهما بالأخرى فى قنال السويس » . وكانت مدة التعاقد على الخدمة قديما اثنتى عشرة سنة ثم سبع سنين . ثم خفضت إلى ثلاث سنين أيام حرب الترنسفال . وفى سنة ١٩٣٣ كان عدد الجيش النظامى ٢٠٠ ألف رجل .

وقد أظهرت حرب البوير ثغرات كثيرة : فالمدفعية غير كافية وتنقصها

النيول ، كما تجلى عدم وجود وحدات أكبر من الآلاى ... الخ . فقامت مجهودات جدية هيأت للفرق الستة هذه أن تتجلى على القارة (فى أغسطس ١٩١٤) حول مونس Mons وإيبر Ypres .

ومنذ نهاية الحرب تعلق الجيش الانجليزى بالناحية الآلية(المحركات) فكان الاهتمام بالحركة وسرعتها أكثر من الاهتمام بالأمان . كانت السيارة الفيكرز (حمولة ١١ طن وسرعة عشرين ميلا فى الساعة) هى النموذج الأساسى وكان لابد أن تفوقها السيارات الألمانية فى ليبيا (١٩٤١) وعلى عكس هذا كانت الأسلحة النارية المعطاة لكل قسم من أقسام الجيش أقل مما أعطى لمثله فى جيوش القارة ومع هذا فقد أبلت الفرق البريطانية التسعة بلاءحسنا فى موقعة الفلاندرز (مايو ويونيو ١٩٤٠) . وكان من الواضح أن هذه الفرق البرية البريطانية غير كافية بالنسبة لقارة مسلحة كأوربا . ويبدو أن المجهود المتصل الذى تطلبته الحرب قد أجهد الشعب البريطانى . فالمشكلة العسكرية هى المشكلة الراهنة فيما وراء المانش .

٢ — الجيش الأمريكى

والأمريكيون بدورهم يجمحون من الخدمة العسكرية الاجبارية . ففيما قبل الحرب العظمى سنة ١٩١٤ لم تعرف الولايات المتحدة نظام القرعة إلا مرة واحدة ، أثناء حرب الانفصال G . de Secession (١) فقد كانت

---

(١) حرب الانفصال Guerre de Secession هى الحرب الأهلية التى نشبت سنة ١٨٦١ بقصد إلغاء الرقيق فى الولايات المتحدة التى استمرت حتى ١٨٦٥ . فقد كان انتخاب كبير أنصار التحرير لنكولن (١٨٦٠) إشارة البدء فى هذه الحرب ضد الولايات التى لم تحرر من الرق والولايات المتحررة التى كسبت المعركة بعد أربع سنين من النضال وقد سمى أنصار الرق (فى ولايات الجنوب) الجنوبيين Sudistes أو المتعاهدين Confédérés بينما سمى أنصار إلغائه (فى ولايات الشمال) الشماليين Nordistes أو المتعاهدين Fédéraux (المترجم)

هذه هى الحرب الكبيرة الوحيدة التى تعد أمريكية خالصة ، كما تعد استثناء ملحوظاً أكثر من كونها قد استحدثت شيئاً فى مجال الحرب . فى ذلك الوقت كان الجيش النظامى لايكاد يبلغ خمسة عشر ألف رجل . ومن هنا وهناك أهيب بالجيش المحلى للولايات ، ومن هذا انتهى الأمر إلى نظام الاقتراع : الجنوبيون ابتداء من سنة ١٨٦٢ ثم الشماليون فى السنة التى تلت . وقد هيأ هذا إعداد أرقام هى التى آذنت بالحرب الكبرى . ففى أربع سنين استدعى التعاهديون (فى الشمال) مليونين وسبعمائة وستين ألف رجل . بينما استدعى المتعاهدون مليوناً وستمائة ألف . وابتداء من ١٨٦٣ يبلغ عدد الجيوش (التى كانت فى غارة مستمرة) على الترتيب ٩٠٠ ألف و٤٧٠ ألف مقاتل . فضخامة الأرقام ، وطول أمد الحرب (أربع سنين) وحدة القتال (حرب مبادىء استشهد فى سبيلها ستمائة أو سبعمائة ألف قتيل) والطابع الجماعى لهذه الحرب (الحصار الاقتصادى للجنوب ودمار جورجيا المنظم على يد شيرمان) بل والطابع الفنى أيضاً (التعبئة الصناعية فى الشمال وإنشاء سفن مدرعة) ... كل هذا يؤذن مقدما بالمعارك الكبيرة التى سيشهدها القرن العشرون ونستطيع أن نتصور والحالة هذه أن هذه الحرب المدنية قد أوحت إلى الأمريكيين الرعب الدائم من استخدام السلاح . فهم لن يلجئوا لنظام القرعة إلا فى مناسبتين أخريين : ١٨ مايو ١٩١٧ وفبراير ١٩٤٢ .

وفى وقت السلم تملك الولايات المتحدة جيشاً « اتحاديا » يسمى أيضاً « الجيش النظامى » عدا « الحرس الوطنى » لمختلف الولايات . فبينما مهة الحرس أن يقوم خصوصاً بالمحافظة على النظام فى الولايات ، تستخدم الجيش النظامى ـ الذى يتكون فقط من المتطوعين ـ فى الممتلكات الخارجية كما يستخدم فى أمريكا . وفى مطلع الحرب العظمى كان عدد هذا الجيش ١٩٠ ألف رجل . وفى سنة ١٩٣٠ كان عدده ١٤٠ ألف (منهم عشرون ألفا فى الفلبين وبنما) وفى

هذا التاريخ بلغ عدد الحرس الوطنى ١٨٣ ألف رجل والاحتياطى المنتظم ١١٨ ألفاً . وهؤلاء الأخيرون هم من الضباط فقط (عدا خمسة آلاف) . وقد واجه قانون الدفاع الوطنى (١٩٢٠) فى الحقيقة إنشاء جيوش من ملايين عديدة من الرجال فى وقت الحرب كما أبقى على هـذه الترتيبات فى وقت السلم . وقد هيأ هذا الإجراء الحكيم سرعة التأهب سنة ١٩٤٢ .

لقد كان هذا الجيش حديثا رغم قلة عدده . وكان أركان الحرب قد استطاعوا أن يتدبروا ضرورات الحرب . وتستطيع مدرسة وست بوينت West Point أن تزهو بتخريج إيزنهاور ، ومارشال ، وباتون Patton وبرادلى وغيرهم .

٣ — جيش الريخ الالمانى

كانت معاهدة فرساى قد حددت الجيش الألمانى ابتداء من ٣١ مارس ١٩٢٠ بما لا يزيد عن سبع فرق مشاة وثلاثة أخرى فرسان ، ولا يتجاوز المجموع مائة ألف رجل . وكان فوش Foch يفضل نظام الجيش المحلى Mélice يستخدم لأمد قصير جدا ، ولكن الانجليز عارضوه بفكرتهم فى الجيش الحرفى وهى الفكرة التى انتصرت ، فجند جيش الريخ رجاله بالتعاقد الاختيارى لمدة اثنتى عشرة سنة .

هذا الجيش الذى أوجده قانون ٢٣ مارس ١٩٢١ إنما كان من عمل سيكت (Seeckt) ، فإنه لاقتناعه منذ ١٩٢٠ بأن لابد أن يجىء اليوم الذى تحطم فيه ألمانيا أمر diktat فرساى هذا وتعيد إنشاء جيشها القومى ، قد جعل من هذا الجيش ، جيش احتراف ، يصلح كنواة أو دعامة لجيش القوة عندما يعيد هتلر الخدمة العسكرية الإجبارية (١٦ مارس ١٩٣٥) . ولما كان الجيش الألمانى موضوعا تحت الرقابة حتى سنة ١٩٢٧ فإنه سرعان ما أصبح خبيراً

بفن التخفى (الـكاموفلاج) لحل ، مكتب القوات العامة Allegemeiner « Truppenant محـل هيئة أركان الحرب الامبراطورية المنحلة . كما ساعد إنشاء المنظمات الموازية للجيش (كالقوات المحلية Heimwehren وهيئة المساعدات الفنية الاضطرارية Technische Nothilfe . . . الخ) أثناء اضطرابات ١٩١٨ — ١٩١٩ ثم إنشاء بوليس الأقاليم (١٩٢٣) على زيادة الأرقام ، ثم إن إنقاص مدة الخدمة إلى ١٨ شهرا فسنة واحدة (١٩٢٣) قد هيأ احتياطيات مدربة . كما ظهرت على الميدان المواد التى كان يحظرها الحلفاء (من طائرات ، ودبابات ، وغازات ، ومدافع ، وأسلحة أتوماتيكية) بفضل المجاملات التى كانوا يلقونها فى الخارج من جانب روسيا خصوصاً حيث كان الضباط الألمان يذهبون للقيام باستعراضاتهم فى المعسكرات التابعة لفرق الريخ (مثل معسكر كاما Kama) بينما كان للمهندسين العسكريين مطلق الحرية فى إجراء التجارب على موادهم الحربية هناك .

هذا النشاط الخفى كله هو الذى غير وجه جيوش الريخ . فهى ليست جيشاً حرفياً بالمعنى الصحيح ، بل جيشاً متدرجا يمهد للجيش القومى ، جيش البلاد Wehrmacht .

الفصل السابع

الشعب المسلح

من الحروب الكبيرة فى عهدى الثورة والإمبراطورية خرج القائد الألمانى كلوزفيتز Clausewitz بفكرة أن الشعوب يجب ، أن تلقى بكل جهدها وكافة قواها فى الميدان فلا يقتصر الأمر على جيش الدولة الناقص وموارده المحدودة كما كانت الحال من قبل . فكان مرسوم أغسطس ١٧٩٣ البوق الذى يؤذن بالشعب المسلح ، وإن لم يشهد القرن التاسع عشر تحقيق هذه الضرورة . فإن الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ كانت قصيرة جداً فى مرحلتها الأولى ، ومحدودة المجال جدا فى مرحلتها الثانية رغم جهود غمبتا فى حشد كافة إمكانيات المتحاربين .

١ — جيوش الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨)

كان الصراع الذى نشأ عقب حادثة سيرا جيفو من الجدة فى مظاهره العديدة بحيث أن المعاصرين ، وقد أدهشهم اتساعه ، أسموه «الحرب العظمى» مدفوعين بالرغبة الكامنة فى أن تكون هذه آخر الحروب . لقد أحال تدخل الأحلاف هذا الصراع بين النمسا والصرب إلى صراع أوربى ، فعالمى . كما أن وجود دول جبارة بين المتحاربين كروسيا والولايات المتحدة قد أصاب الكتل الإنسانية بصدمة لم تشهد لها مثيلا من قبل . وكما أعطى الصراع بين القوتين الصناعيتين الأوليين فى ذلك العصر (انجلترا وألمانيا) النضال مظهرا فنيا عاليا . وأخيراً فإن الحصار — سلاح انجلترا التقليدى — قد انتهى إلى

أن يصل الحرب طابعاً « جماعياً » يمتاز بطول الصراع (٤ سنوات) وبالمرارة (٨ ملايين من القتلى وخسائر تقدر بالمليارات) وتعبئة « الروح المعنوى » (الدعاية الوطنية التى تحض على كراهية الشعوب الهمج).

الأرقام : بدأت الحكومات فى أغسطس ١٩١٤ تجهز جيوشها الوطنية للحرب فعبأت ألمانيا ٣ ملايين و ٨٠٠ ألف رجل ، واجهت الغرب منها بمليون وخمسمائة ألف مقاتل لتنفيذ خطة شليفن Schlieffen . واستطاعت فرنسا أن تقدم إلى الصفوف فى مقابل هؤلاء وعلى مسرح العمليات الحربية هذا عدداً من الجنود يكاد يكون مماثلا . أما انجلترا فعلى العكس - ونظرا لأنها ظلت مترددة حتى اللحظة الأخيرة - لم يكن لديها إلا السبعون ألف جندى (جيشها) ، الذين كانوا فى نظر الألمان قوة « حقيرة » . وكان لدى روسيا موارد ربما لا يمكن تحديدها ، ولكن جمعها كان يلزمه وقت طويل جداً .

وقد أثارت الخسائر الجسيمة منذ المواقع الأولى ، وثبات جبهات القتال فى حرب المواقع هذه (من نوفمبر ١٩١٤ إلى مارس ١٩١٨) التى أصبحت « حرب ربا guerre d'usure . . . » أثارت بسرعة مشكلة الأرقام . فمن جانب الحلفاء كانت الخسائر الأولى باهظة جـــداً ، واستطاعت فرنسا أن تسد الفراغ فى صفوفها ولكنها كانت عاجزة عن أن ترتفع كثيرا بأرقام رجالها المحاربين . وقامت انجلترا على العكس وتحت ضغط اللورد كتشنر بمجهود كبير : ففى ابريل ١٩١٥ كان عدد جيش إنجلترا مليونا و ٣٠٠ ألف رجل كلهم متطوعون . وبادخال نظام القرعة فى يناير ١٩١٦ أمكن رفع هـذا العدد إلى أكثر من ثلاثة ملايين سنة ١٩١٨ . على أن البراعة فى التجهيز إنما جاءت من جانب الولايات المتحدة . ففى ٩ إبريل ١٩١٧ يوم أن دخلت الحرب لم يكن جيشها القائم يزيد على ١٩٠ ألف مقاتل . وأدخل نظام القرعة بالأمر الصادر فى ١٨

الايو التالى ، فاسفر عن جيش قوامه ٣ ملايين ٦٦٥ ألف رجل عند نزع مسلاح (منهم أكثر من مليونين فى أوربا) .

أما الامبراطوريات الوسطى ـ فقد اصطدمت على عكس ذلك بصعاب كبيرة . فنى السنوات الثلاث الأولى استدعى سريعاً جنود تحت الطلب حيث أمكن أن يسدوا الفراغ . وبتجنيد دفعتين من الجيش الأقليمى Landwehr ثم من جيش الهجوم Landsturm تيسرت الزيادة القوية فى الأرقام (مليونا مجند فى سنة ١٩١٥ وحدها) . وابتداء من سنة ١٩١٧ بدأت الموارد الإضافية تنضب ولزم الاستعانة بالكثير من الحيل : دعوة الدفع الجديدة من الشبان مقدماً وتحصيل المؤجلين والمعاقبين . . . الخ . ورغم هذه الأمدادات كلها . كانت الوحدات سرعان ما تذوب . فنى الوقت الذى طالبت فيه ألمانيا بنزع السلاح لم يكن لديها أى فائض من الرجال ، ولقد كان هذا أحد الأسباب الأساسية فى هزيمتها ، لقد خسرت فى معركة الأرقام .

وأكثر من الارقام الكلية للمحاربين ، نستطيع أن نبين القوة الحقيقية للجيوش بأرقام فرقها ، فقد وصلت فرنسا فى هذه إلى مجموع قدره من ٨١ إلى ١١٠ فرقة . كما زادتها انجلترا من خمسة إلى مائة . وفى سنتين جهزت الولايات المتحدة ٧٣ فرقة . ودخلت ألمانيا الحرب بمائة وتسعة عشر فرقة وأنهتها بمائتين وثلاثة عشر (وبلغ الحد الأقصى ٢٤١ سنة ١٩١٧) . كان التفوق العددى الخفيف للحلفاء هو سبب انتصارهم فى مارن La Marne . وتجلى بوضوح واضحاً فى أواسط سنة ١٩١٦ . كما أن انهيار روسيا قد حرمهم مائتى فرقة وانتهى بهزيمة حلف التفاهم الودى سنة ١٩١٧ . وأخيراً فنى سنة ١٩١٨ عاد التوازن ولكن بوحدات كثيراً ما كانت أرقامها صورية (خفضت بعض السرايا إلى ثلاثين أو أربعين رجلا) .

وتلاقت هذه الكتل البشرية فى اصطدام رهيب . ٧٨ فرقة من فرق الجيش فى جانب ألمانيا مقابل ٨٢ فرقة للحلفاء أثناء معركة ١٩١٤ و ١٧١ فرقة للحلفاء مقابل ماتى فرقة للجيش الألمانى فى معركة فرنسا سنة ١٩١٨ . أرقام لم يعرف التاريخ لها مثيلا .

التعبئة الصناعية تظاهر الجيوش :

إن حرب الخنادق إنما هى إيذان بظهور المعدات الحربية(١) إذ لإخراج العدو من مكمنه لابد من تحطيمه أو قمعه بالقذائف والقنابل وشل حركاته إزاء تقدم الفرق المهاجمة . ولقد كان هجوم شتاءى ١٩١٤ - ١٩١٥ — وهو هجوم رجال على مواقع منيعة - كله فشلا دموياً ذريعاً . وتتجلى هنا حقيقة : وهى أن هجمات المشاة لابد أن تكون « معدة » ومدبرة . وتصبح « قوة النيران » هى العنصر المسيطر على ميدان القتال . كما تكثر الأسلحة وتتنوع: أسلحة المشاة الأوتوماتيكية (المدافع والبنادق الرشاشة ، القنابل اليدوية وقنابل V . B . للمعارك القريبة ، قاذفات القنابل ذات المرمى المنحنى . والمدافع من كل العيارات ابتداء من ٧٥ أو ٧٧ إلى ٤٠٠ الفرنسى أو ٤٢٠ الألمانى) . كل هذه الأسلحة تتسابق للهجوم كما تتسابق فى الدفاع .

ويبدأ الهجوم بهذه الافتتاحية المحزنة ، ونعنى بها « عمل المدفعية » التى تدك الحصون وتقطع الأسلاك وتبيد البطاريات ثم تحتل مواقع العدو مانعة وصول الامدادات إليها ، ثم تزحف المشاة بعد ذلك وراء ستار من النيران هو بمثابة حاجز متحرك ، بينما العدو يقوم من جانبه بطلقات المقاومة وباستعدادات مضادة . وكل هذا يلزمه عتاد ضخم . فى معركة فردان

---

(١) أنظر تاريخ التسليح Histoire de l'Armement فى المجموعة Que sais-je?

Verdan كان ثمة ٣٤ بطارية على كل كيلومتر ، وفى ملميزون Malmaison ٤٠ بطارية ، وفى الفلاندرز ٣٨ أى بواقع قطعة حربية كل ٦ أو ٧ أمتار من الجبهة . وفى هجوم نيفل Nivelle (٤ - ١٧ ابريل ١٩١٧) ألقت الجيوش الفرنسية ٤ ملايين قذيفة من عيار ٧٥ .

فالقتال يثير إذن مشكلة صناعية يتدخل فيها عاملان . اليد العاملة والمواد الأولية . ولم تكن فرنسا قد تدبرت هذه الناحية الحربيـة ، كما أن التعبئة العامة قد أضعفت من شأن الانتاج . فنذ سنة ١٠١٥ أعيد العمال الفنيون من جبهة القتال وعهد إليهم بأن يعملوا فى المصانع للدفاع الوطنى . وألحق بهم يد عاملة جلبت من المستعمرات الفرنسية (خصوصاً من الهند الصينية) كما استعين بالمتطوعين الأشداء . فلم تجيء سنة ١٩١٦ حتى كانت الصناعات الحربية يشتغل بها مليون من العمال من بينهم ٢٠٠ ألف امرأة . وفى ذلك الحين كانت انجلترا تستخدم فى مصانعها يدا عاملة من الرجاء والنساء ضعف هذا العدد . ولكن امبراطوريات وسط أوربا قد اصطدمت فى هذا المجال بمصاعب خطيرة : فالفنيون الذين بقوا فى أماكن عملهم منذ البدء قد استدعوا منذ سنة ١٩١٦ وتجمعوا تحت الأعلام — وذلك لمواجهة مشكلة نقص الأرقام . وتقدمت هذه الدول خطوة أخرى إلى « التجنيد المدنى » للرجال والنساء ، وإلى نقل الرجال من الشعوب المحتلة (بلجيكا وبولندا) .

وأكثر خطورة أيضاً كانت مشكلة المواد الخام . فالحلفاء وبينهم « سيدة البحار » كانوا يستطيعون أن يتحصلوا بأسطولها الانجليزى على ما يلزمهم . ومع هذا فانه لأسباب مالية كان عليهم أن يحدوا من هذه اللوازم . وهنا تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية . فى المجال الداخلى (ولأسباب تتعلق بالنقد) أمكن الوصول إلى تحديد توزيع المواد الغذائية .

وفى المجال الخارجى (ولتشجيع الصناعات المحلية) أمكن الحد من المشتروات من المنتجات الصناعية كما أمكن تجميد الأرصدة . واندفعت ألمانيا — لكى تتخلص من الحصار الذى قطع عليها كل سبيل للامداد — فى حرب الغواصات ، تلك الحرب التى فشلت وأدت إلى التدخل الأمريكى ؛ وإن تكن فى الداخل قد نمت المواد الاستبدالية Ersatz (نسيج الورق ونعال الخشب) . ومع كل هذا شعرت منذ سنة ١٩١٦ بالإصابة بنقص الرجال واتهمت انجلترا بأنها إنما تباشر الحرب على النساء والأطفال . وفضلا عن هذا فقد لجأت إلى السلب المنظم للبلاد التى احتلتها (شمال فرنسا وبلجيكا). وكان تدخل الحكومة مبكراً فمنذ ١٩١٥ تولى مشروع راتنو Rathenau الاشراف على الانتاج . وفى أواخر سنة ١٩١٦ أنشأت هيئة أركان الحرب مجلس الحرب kriegsamt الذى سيطر على كافة نواحى الحياة الاقتصادية (مكتب الحبوب ، مكتب المواد الأولية ... الخ) إلا أن هذا كله لم يكن كافياً . وما زالت « معنوية » الشعب الألمانى تضعف . فلم يتردد القائد الأعلى رغم كارثة نقص القوات — فى أن يبقى حتى نزع السلاح على عشرين فرقة من الجيش فى أوكرانيا (مليون رجل) لحراسة مخزن حبوب أوربا هذا والإشراف عليه .

ويطغى العامل الاقتصادى على الاستراتيجى ، فيزول الفرق بين الشعوب المحاربة وغير المحاربة . وتصبح الحرب إذن كلية شاملة ، والشعوب كلها تحت السلاح .

تطور تركيب الجيوش :

قل ما هنالك من شبه بين أسلحة ١٩١٨ ، وأسلحة ١٩١٤ — القدر الذى به تشتبهُ هذه الأخيرة بأسلحة نابليون . فان ظهور المواد الحربية قد قلب نظامها رأساً على عقب .

فالمشاة يشهدون قوة نيرانهم تتضاعف بتعميم الأسـلحة الآلية (الأوتوماتيكية) . ففى ربيع ١٩١٦ ظهر المدفع الرشاش - السلاح الخفيف الحمل الذى يرمى من ٨٠ إلى مائة طلقة فى الدقيقة . وأصبح هو السلاح الأساسى لجندى المشاة الذى حوله تتوزع « فرقة القتال » من حوالى عشرة رجال - الخلية الأولى للمشاة الحديثة . هذا التوزع فى وحدات قليلة العدد جيدة التسليح يسمح بالاستخدام التكتيكى لهذه المجموعات الصغيرة وبتقدم طرق التسلل . فثلاث وحدات تكون جماعة وأربع جماعات تكون سرية . ولم تفقد المدافع الرشاشة مع هذا مكانتها - فما تزال هى العدة الثقيلة من الطراز الأول . إذ أن الفرنسيين والألمان كانوا فى سنة ١٩١٤ قد أخذوا العبرة من حرب البوير وحرب منشوريا . عرف كلاهما فائدة الأسلحة الرشاشة ولكن الألمان قد أعطوا لها أهمية أكبر .

وفى سنة ١٩١٦ جهزت كل كتيبة بسرية ذات ١٢ مدفعاً رشاشاً (أى بمعدل ٣٦ مدفعاً لكل آلاى) . كما أكمل تسليح الكتيبة بمدفع ٣٧ البعيد المدى . ثم فى سنة ١٩١٧ أنشئت لخدمة مدافع الهاون « سرية آلية » . وقد هيأت زيادة قوة النيران هذه التى أمكن الوصول إليها لتقليل عدد الرجال وبالتالى الضعف . فنقص عدد السرية فى فرنسا من ٢٥٠ رجلا إلى ١٧٥ رجلا .

وأصبحت المدفعية هي المسيطرة في حرب المواقع ـ خصوصاً المدفعية الثقيلة . وفي بداية الحرب لم يكن لدى فرنسا إلا ٦١ بطارية ثقيلة من أنواع قديمة بينما كان لدى ألمانيا ١٤٧ من عتاد أحدث ، جربت لأول مرة ضد القوات البلجيكية وفي سنتي ١٩١٦ ، ١٩١٧ تقدم القائد العام الفرنسي إلى تنظيم شامل جديد : فتطورت مدفعية الفرق من ٩ إلى ١٢ بطارية منها ثلاثة ١٥٥ قصيرة سريعة الطلقات . ولما فقد الجيش مدافعه عيار ٧٥ استبدلت بها ست بطاريات ثقيلة طويلة (١٠٥ إلى ١٥٥) . ووضع تحت تصرف القائد العام « احتياطي المدفعية العام » القوي ذي الثلاثة والستين آلاى التي كان منها إثنا عشر مزودة بأسلحة ذات قوة هائلة .

وفي الجانب الألماني كان التطور مماثلا : ففي سنة ١٩١٨ كان يوجد ١٥٧٥ بطارية ثقيلة (مقابل ١٤٧) و ٢٨٠٠ بطارية ميدان (مقابل ٨٦٥ في سنه ١٩١٤) . وظاهرة أخرى جديرة بالذكر هي الأهمية المتزايدة للتعاون بين المدفعية والمشاه . فان رجل المشاة يطلب إلى رجل المدفع أن تحميه نيرانه بما يستطيع معه أن يتقدم .

وعلى العكس من هذا تفقد الفرسان من أهميتها . ففي الخنادق يقاتل الجنود مترجلين سواء أكانوا مشاة أو ركبانا . ولا يبقى لهم إلا الاعتزاز بتقاليدهم . لقد حلت محلهم « عربات الهجوم » تلك التي تم إعدادها في ديسمبر ١٩١٥ والتي ظهرت لأول مرة في القطاع الانجليزي من السوم Somme في سبتمبر ١٩١٦ . ولأول مرة استخدمتها القيادة الفرنسية بصورة كلية في الإين Aisne سنة ١٩١٧ : فاستخدمت ١٦٠ عربة شنيدر Schneider وسان شامون St Chamond بوصفها « مدفعية هجوم » وكانت النتيجة مؤسفة . ففكر الجنرال اتيين Estienne في عربة تكون أكثر

مرونة وأكبر سرعة وأقل ضعفاً : وهنا لعبت عربات رينو Renault دوراً كبيرا فى معركة فرنسا حين ألحقت بالمدفعية . وأهملت ألمانيا من جانبها هذا التجديد . فلم تلتفت منه إلا القليل جداً إلى جانب استعمالها جزءا مما كانت تستولى عليه منها . إذ لم تكن القيادة العليا قد فهمت بعد ـ حتى ذلك الحين ـ أهمية هذه الآلة .

ورأى المهندسون العسكريون ملحقاتهم فى تزايد . فقد ظهر سلاح جديد ؛ ونعنى به المخابرات (التلغراف والتليفون واللاسلكى) . فالحق أن الاتصال وان يكن ضروريا جدا أكثر فأكثر (بين المشـــاة والمدفعية ، والطيران والمدفعية . . . إلخ) قد أصبح مستحيلا بالوسائل القديمة الموجودة حينئذ ، نظراً لاتساع جبهة القتال وبعد أجهزة القيادة .

وأخيراً فان الطيران يقوم بتطور ضخم . وإذ كان استخدامه قاصراً أول الأمر على المراقبة ،فقد كان يرشد نيران المدفعية ، ويتعرف على مواقع العدو . ثم إنه باستعماله فى إلقاء القنـابل قد زاد من مدى المدفع ، فشملت المعارك العمق والارتفاع ، ولم يعد القتال خطاً أو صفا ، بل أصبح مساحة وسطحا . وأمكن التغلب على البعد الثالث هـنا « بالمطاردة » التى يصورها جوينمر Guynemer . لقد أصبح الفضاء كله «ميدان المعركة» . وهذا الاتساع فى مجال الحرب سوف يظهر على أشده فى الصراع الدولى الثانى .

وتنوع تركيب الوحدات الكبرى فى نفس الوقت الذى تطورت فيه هكذا الجيوش التى تنتظمها . وتمثل التطور فى نوع من زيادة قوة النيران (على نحو ماارأينا فى المدفعية) وفى تقليل أرقام الرجال (فنقصت الفرقة من المشاة من ١٢ إلى ٩ كتائب) ثم فى الإكثار من « الخدمات » . وكثيراً ماأدى تثبيت جبهات القتال إلى أن تستعمل القيادة الفرقة خارج الفيلق الذى تتبعه

أصلا فى الجيش . فكان لابد إذن من تزويدهـا بكافة الأجهزة التى تسمح بالقتال والإمدادات والتنقل فى استقلال وانفراد: حظائر المدفعية والمهندسين ووحدات للخدمة الصحية والإدارة . وبذا تصبح « الفرقة من الجيش » أصغر « الوحدات الكبرى » الفاعلة بذاتها .

وهذا هو التركيب المقارن لاحدى فرق المشاة فى الجيش الألمانى :

١٩١٤	١٩١٨
١ – أركان حرب	١ – أركان حرب
١ – آلاى فرسان	٢ – سرية فرسان
٢ – لواء مشاه كل منهما آلايان	٣ – آلاى مشاه (من ٣ كتائب)
١ – لواء مدفعية من آلايين (٧٢ قطعة منها ٥٤ عيار ٧٧ و ١٨ عيار ١٠٥).	١ – آلاى مدفعية ميدان عيار ٧٧
	١ – فصيلة مدفعية خفيفة (٤٨ قطعة منها ٢٤ عيار ٧٧ و ٤ عيار ١٠٠ ، ١٢ عيار ١٠٥ و ٨ عيار ١٥٠)
١ – فصيلة لحراسة الكبارى	
٢ – سرايا مهندسين	٢ – كتيبة مهندسين
	١ – كتيبة مخابرات (لاسلكى)
١ – وحدة للخدمات الطبية	١ – سرية طبية
	١ – سرية نقل بالسيارات
	١ – وحدة علاج بيطرية
	١ – مركز تعليم خاص بالفرقة

لقد كان « الفيلق » العضو الهام للقيادة ولهذا كان يحتفظ بمدفعيته الخاصة وخدماته . وبالمثل كان الجيش . وأخيرا رأينا ظهور « مجموعة الجيوش » التى

أنشئت من أجل فوش Foch فى خريف ١٩١٤ تحت اسم « مجموعة جيوش الشمال » والتى كان منها فيما بعد ثلاث مجموعات : فى الشرق ، والوسط ، والشمال ذات تركيب متغير تبعا لما يقتضيه الموقف الراهن . كان كل منها «مركز قيادة» وإن لم تكن وحدات كبيرة حقيقية .

مشاكل القيادة :

فى جانب الحلفاء ظل جوفر Joffre حتى ٢ ديسمبر ١٩١٥ القائد العام لجيوش الشمال والشرق، ثم عين فى ذلك التاريخ «قائدا عاما للجيوش الفرنسية مهمته توحيد القيادة الذى لاغنى عنه لإدارة دفة الحرب » . ولم يكن لهذا اللقب من أثر كبير . فقد احتفظ الجيش الانجليزى بفاعليته الذاتية تحت قيادة فرنش French ثم هيج Haig . ولم يتحقق توحيد القيادة إلا مع فوش Foch (١٩١٨) . وكانت للقائد العام مهام حربية دقيقة فكانت القيادة الاستراتيجية للمواقع الحربية تدخل فى اختصاصه ، ولكن إمداد جيوشه وتنظيم مؤخرة كل جيش لم تكن تتبعه ، وظلت الحكومة ممسكة بزمام التعبئة الصناعية والصعوبات التى حدثت فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧ إنما زاد من خطرها هذه الثنائية فى السلطة التى تمثلت فى شخصيتى فوش وكليمنصو الكبيرتين المتفقتين لحسن الحظ على الهدف الأساسى ، وهو القيام بالحرب .

أما فى ألمانيا فالموقف أكثر وضوحا . فازاء وزير هزيل (ميخائيلس ثم هرتلنج) وأمام امبراطور مستسلم ، كان لابد أن تنشــأ الدكتاتورية ، دكتاتورية « القيادة العامة » أولا هندنبرج ثم ليندورف Ludendorff فهم الذين يفرضون على غليوم الوزير الذى يرتضونه ، وهم الذين يسيطرون — عن طريق مجلس الحرب Kriegsamt — على الحياة الاقتصادية

والاجتماعية ، وهم الذين يوجهون السياسة العامة وفقا لحاجات جيوشهم واستئناف حرب الغواصات فى يناير ١٩١٧ والهجوم الألمانى على الشرق واحتلال أوكرانيا بعد برست ليتوفسك (Brest - Litovsk) . فوحدة قيادة الجيش بهذا متحققة ، وهـذا تصوير سابق للحرب العالمية الثانية .

٢ـجيوش الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ـ١٩٤٥)

الاستمداد للحرب :

إن اختلاط المجالين : المدنى والعسكرى ، الذى يرجع إلى اتساع الحرب ، إنما يظهر فى إجراء معاهدات الصلح .

وهذا مانستطيع أن نتبينه فيما جرت به التقاليد من حلول : فالدبلوماسيون الذين كانوا قد لزموا الصمت منذ أن بدأت المدافع تتحرك ، قد عادوا إلى الكلام بمجرد « وقف إطلاق النار » ، فقاموا بالسلم عند ما كان العسكريون قد فرغوا من القيام بالحرب . وكانت الخلافات بين فوش وكليمنصو ترجمانا لحالة من الأمر لم تعد تطابق الواقع . ولقد أرهف الفزع من الصراع الرجال أشد إرهاف ، حتى إنه باستجابة تكاد تكون طبيعية ، كان الرأى الذى تمليه بلاغة السياسيين يغيب شيئا فشيئاً عن فطنة العسكريين . ألم يعلن أن الحرب خروج على القانون ؟ ألم يهتف « لتسقط المدافع ولتسقط السيوف ! » إن المنتصرين فى الحرب كانوا هم المنهزمين فى السلم .

ورأت ألمانيـا نقصان جيشها إلى مائة ألف رجل . إلا أن هذا التحديد المفروض عليها إنما هو ذريعة للتجمع حول « الجيش » ، وباستثناء عجيب

ظلت مكانة الزى العسكرى فى هذه الدولة المغلوبة عظيمة جداً ، كما ظلت القوة كلها بيد هيئة أركان الحرب. فأشرف نوسكه Noske وزير الحربية على الجيوش المضمحلة بعد الحرب . كما كان إيبيرت Ebert أول رئيس لجمهورية فيمار على صلة سرية دائمة بمجلس أركان الحرب وعلى اتصال تليفونى يومى بالجنرال جرونر Groener مرددين أن الجيش الألمانى هو منقذ وحدة الريخ (الامبراطورية) ،فيحطم الثورة ، ويصبح فى عهد فون سيكت Von Seeckt (رئيس هيئة أركان حرب الجيش من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٦) «محور ثبات الدولة» كما ينتصر مع المارشال هندنبرج رئيس الجمهورية (من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٤) ويصبح جيش الدفاع الحر فى صخرة ألمانيا الحديثة الصماء .

أما عند الحلفاء فعلى العكس مازالت ميزة القادة الكبار باقية ، ولكن الجيش يصيبه الضعف باسم الدولية ، وروح السلام ، أو باختصار لأسباب مالية . فما أسرع ما سرحت انجلترا والولايات المتحدة جنودهما . وعادتا إلى طابعهما التقليدى فى الجيش المحترف. وخفضت فرنسا مدة الخدمة العسكرية إلى ثمانية عشر شهراً (١٩٢٣) ثم إلى سنة (١٩٢٨) . وفى سنة ١٩٣٠ كان عدد الجيش الفرنسى ٦٠٠ ألف رجل تعليمهم غير كاف . وأما إيطاليا فعلى العكس ـ تحولت إلى شعب عسكرى يحمل الصغار فيه المدفع فى سن الثامنة ويستعرضهم الدوتشى . وتفوق الجيش الإيطالى على الجيش الفرنسى بخمسة فرق .

وكان تولى هتلر إيذانا بانتهاء خيالات استمرار السلم . ففى سنة ١٩٣٥ استؤنف سباق التسلح . إذ فى ١٦ مارس من هذه السنة أصدر « الفوهرر » أمره باجبارية الخدمة العسكرية .وهذا يعتبر نشأة جيش الهجوم Wehrmacht وفى نفس اليوم عادت فرنسا إلى زيادة الخدمة العسكرية إلى سنتين ، ورفضت

ايطاليا جيشها السلمى إلى ٦٠٠ ألف رجل . إنه سباق فى السرعة . ولكن الدكتاتوريات لها ميزة أولى يضاف إليها السلطة الجبارة للدولة التى تعبىء فى فترات السلم كافة القوى الإنسانية والمعنوية والاقتصادية عملا على تحقيق الأحداث التى يرسمها القائد ومع قبول المخاطر التى قد تأتى بها الحرب . أما الديمقراطيات فيرهقها ان تسير على هذا النظام الجنونى ؛ وتاريخ السنوات ١٩٣٥ — ١٩٣٩ لا يقوم إلا فى محاولات ومآسى فات أوانها . وثمة فى الدول الأولى ظاهرة ملحوظة بوجه غير عادى ؛ ونعنى بها تبعية السلطة العسكرية تبعية تامة للسلطة المدنية . وأكثر دقة نقول إن اقتراح هاتين السلطتين إنما يتحقق فى شخص الدكتاتور . والخصومات بين الجيش والحزب السياسى خصومات حقيقية — ولكن (الفوهرر) كان دائماً يفرض ارادته .

وفى أقصى العالم من الجهة الأخرى يتطور شعب يسيطر عليه جيشه . ونعنى به اليابان . فقد ظل العسكريون اليابانيون زمناً طويلا من المدرسة الألمانية . وكان معلومهم إنما يأتون من برلين . ولتشبعهم بالروح البروسى ، كانوا يحلمون بأن يحققوا فى الشرق الأقصى ما كان الهتلريون على وشك أن يحاولوه فى أوربا : إقامة تفوق عنصرى فى البلاد . ثم تولى السلطة فى هذه البلاد . ومنذ ١٩٣١ سيطروا على الحياة السياسية وثبتوا مراكزهم بانقلاب ١٩٣٦ . وبتأثيرهم نشأت أحداث الصين واحتلال منشوريا ثم بعد ذلك تكوين آسيا العظمى . هذا التأثير فى الدولة إنما هو من خصائص الجيش اليابانى وحده . أما تكوينه القائم على النظام الألمانى فلا جديد فيه يذكر . وفى سنة ١٩٣٩ استطاعت اليابان أن تعبىء من ٧٠ إلى ٨٠ فرقة من الجيش العامل والاحتياطى الأول. بل إنه كان لديها فرق آلية بأسرها كما كانت الحال فى الريخ . وكان طيرانها عظيما وحديثاً : ٣ آلاف طيارة من الطراز الأول . وكان لهذا الجيش مزايا عظيمة من حيث الشجاعة وإنكار الذات (مما أحس

به الأمريكيون) ولكن القيادة قد كشفت فى حرب الصين عن خيال هزيل . فالضابط اليابانى يطبق النظام فى خضوع . أما القائد فيحاول أن يوجد فى المعركة حالة مدروسة ـ تماما كما فى لعبة الحرب التى تجرى فى المدرسة الحربية .

وشهدت هذه العشرون سنة فيما شهدت أيضاً نشوء جيش من نوع جديد . ونعنى به الجيش الأحمر . وهو إذ ينبع من ثورة سلمية فى مظاهرها الأولى ؛ فإن وثيقة ميلاده الأمر الذى أصدره لينين فى ٢٣ فبراير ١٩١٨ . و «جيش العمال والفلاحين الأحمر» هو فى البدء جيش طبقات غرضه الدفاع عن الثورة . وفى غمرة الحرب المدنية بين الزعماء يظهر رؤساء عصابات أكثر من كونهم ضباطا ولكنهم رجال سياسة ماهرون أمثال بودينى Boadienny وتورشيلوف وستالين الذين ينتظرهم المستقبل الكبير .ولكى يتم تكوينهم وتعليمهم (الحرفة) لم يكن ثمة تردد فى الاستعانة بالضباط القيصريين الذين أصبحوا بهذا معلمى رؤساء الجيش الأحمر الجدد . وحلت محل عصابات المتطوعين فى البدء طريقة القرعة فى مايو ١٩١٨ ثم الخدمة العسكرية الإجبارية فى سنة ١٩٢٨ .

هذا التاريخ الأخير يوافق انتصار ستالين على خصومه . ومنذ ذلك الحين تغير الجيش . فبين الرتب القديمة وصفوة الضباط الجدد تم التدرج شيئاً فشيئاً . وأعادت الانتصارات التى باء بها تحقيق هذا « النظام » إلى الروس الثقة بقيمتهم وأنفسهم . وبهذا نشأ الجو اللازم لإدخال روح وطنى جديد . ومنذ ذلك الحين أصبح النظام من القوة بحيث يعيد انشاء الرتب والدرجات التى ألغاها . فنى سنة ١٩٣٥ أعيد تكوين « هيئة الضباط » ، وفى سنة ١٩٤٠ أكمل سلم الترقيات إلى الدرجات العليا . وعادت الدرجات

والألقاب إلى الظهور . وأصبح الجيش الأحمر جيشاً وطنيا عظيما .

والمواطن السوفيتى خاضع لسنتين من الخدمة العاملة تسبقها سنتا اعداد عسكرى . ولأول مرة فى تاريخ روسيا يحمل الجميع على الخدمة ؛ حتى القوقازيون الذين لم يطلبوا لها أبدا فى عهد القياصرة . جند إذن ربع القارة فى الجيش النظامى ، والباقى فى تشكيلات اقليمية منظمة على مبادىء الفرق المحلية الشعبية . وقد هيأ هذا الحصول على أرقام زادت من ٥٦٠ ألف سنة ١٩٢٤ إلى مليون و ٣٠٠ ألف سنة ١٩٣٩ والجيش هكذا تكوينه كان يقرب من نواحى كثيرة من جيوش الدكتاتوريات .

ففى داخل البلاد لم يكن أكثر من آلة ـ جوهرية لاشك ـ ولكنها خاضعة تمام الخضوع للسلطة المدنية (وإن قضية إعدام توخاتسفسكى سنة ١٩٣٧ لهى إحدى الملاحم الدموية فى هذا الصراع) . فبمفتشيه السياسيين كان الحزب يشرف بدقة . كما أنه كان ـ خصوصا منذ سنة ١٩٣٣ ـ المركز الذى حوله تنتظم استعدادات الدفاع عن الوطن : خطة التعبئة المدنية (بما فى ذلك النساء والأحداث) وسياسة التجهيز التى تتولى تحقيقها مشروعات السنوات الخمس والتى تتضمن هجرة صناعات الدفاع الوطنى نحو الشرق (منذ ١٩٣٦) . ومن ناحية أخرى فإن الاستبعاد الذى يكاد يكون كلياً للطبقات الموسرة فى روسيا (البورجوازية والكولاك) قد أبقى للجيش الأحمر على طابعه الخاص الذى به أصبح جيشا وطنيا شعبيا .

جهود المتحاربين فى الحرب[1] :

ظلت أرقام الجيوش فى عام ١٩٣٩ مقاربة أيضاً لما كانت عليه فى سنة ١٩١٨ . وعند اعلان الحرب عبأت فرنسا ٥ مليون ومائتين وخمسين ألف جندى . كما عبأت ألمانيا خمسة ملايين وخمسمائة ألف رجل . ومن هذه الأرقام حوالى ٥٠٪ كانوا يكونون خدمة المؤخرة . وفى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ كانت كتلة الهجوم الألمانية تبلغ قوتها ١١٥ من فرق المشاة وعشر فرق مصفحات ، وخمسة آلاف طائرة ، واجهها الحلفاء بسبعين فرقة مشاة و ١١ فرقة لحراســة المواقع و ٨ فرق فرسان وست فرق مصفحات ، وألف وخمسمائة طائرة . وفيما بين ٢ سبتمبر ١٩٣٩ و ١٠ مايو ١٩٤٠ أرسل الانجليز على القارة عشر فرق (وكانوا وعدوا فرنسا منها بفرقتين خلال محادثات أركان الحرب التى دارت فى أبريل ١٩٣٨) .

إلا أن اتساع الجبهة الشرقية (٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ كيلو متراً) ودخول الولايات المتحدة الحرب قد أديا إلى تقدم غير عادى فى الأرقام . فإنه بعد هزيمة فرنسا بقيت انجلترا وألمانيا وجها لوجه بقوات بلغت على الترتيب ٣ مليون و ٢٠٠ ألف و ٥ مليون و ٧٠٠ ألف جندى تحت التعبئة . وفى سنة ١٩٤٥ كان لدى انجلترا ٤ مليون ونصف رجل وامرأة فى زى الحرب . ولدى أمريكا ٨ مليون ، وروسيا ٢٢ مليون وألمانيا ١٣ مليون .

وبنفس النسبة تزايدت أرقام الفرق التى قدمت إلى خطوط القتال . ففى يونيو ١٩٤١ نجد ١٦٠ فرقة مشـاة و ٢٠ فرقة مدرعة و ٣٠٠٠ طائرة

---

(١) أنظر تاريخ الحرب العالمية الثانية لسيريه R. Céré فى مجموعة Que Sais-je

تندفع فى الهجوم على روسيا لتصطدم بمائة وخمسين فرقة مشاة و٤٥ فرقة مصفحـــة كل منها ذات مائتى دبابة ثم حوالى ٨٠٠٠ طائرة . وفى معركة ستالنجراد وحدها استخدم فون بوك Von Bock مليون رجل و ٣٠٠٠ طائرة وخمسة آلاف دبابة هجوم . وقد هجم الجيش الأحمر فى يناير ١٩٤٥ بمائتين وتسعين فرقة احتياطية .

ولم يعرف الشرق الأقصى هذه الكتل الضخمة من الرجال . فقد غزت اليابان شرق آسيا وجزءاً من المحيط الهادى بمائتى ألف رجل وأقل من ألف طائرة . إذ أن الظروف الجغرافية لقتالها كانت تتعارض مع أى استخدام لكتل بشرية أكثر عدداً .

ولجمع هؤلاء الرجال كان لابد أن تصير التعبئة أكثر شمولا مما كانت عليه أثناء حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ . فقد استدعت كافة الدول النساء لا لمصانع الحرب فحسب ، بل فى وحدات الجيش الإضافية ذاتها . فرق القوات الجوية الإضافية وفرق الخدمات النسائية الخارجية والداخلية وفرق الدفاع ضد الطائرات D.C.A بل وفى روسيا فى الوحدات المقاتلة ذاتها (خصوصاً الطيران) وفى سنة ١٩٤٤ كان لدى انجلترا ٤٦٧ ألف امرأة يلبسن الزى العسكرى .

وتقدم العتاد الحربى بهذه النسبة حتى إن الإمكانيات الصناعية أصبحت هى التى ترجح الكفة . وأصبح عدد الدبابات والطائرات هو الذى يحدد مصير الحرب أكثر مما يحدده عدد الرجال . ولقد شهدت معركة فرنسا انتصار حرب المصفحات ، كما أن النزول فى الغرب لم يكن ممكناً إلا بالتفوق الذى لا جدال فيه فى جانب الطيران الانجليزى والأمريكى (١١ ألف طائرة مقابل ألفين أو ثلاثة) . أما فى الجبهة الشرقية فقد تفوقت الدبابات الروسية على فرق الدبابات الألمانية .

هذا العتاد كان سرعان ما يلى ، وسرعان ما يتقادم طرازه . والنتيجة الاستمرار فى انتاج الدبابات ، والطائرات ـ بذلك كانت تصدر أوامر المتحاربين . وبلغت الولايات المتحدة فى سنه ١٩٤٤ أقصى انتاجها (٩٦ الف طائرة) بينما لم تصل ألمانيا إلى أربعة آلاف . أما فى الدبابات فقد أخرجت منها أمريكاوانجلترا (سنة ١٩٤٣) ٣٧ ألفامقابل ١٢ ألفا فى الجانب الألمانى . لقد سيطرت الصناعات الحربية على الحياة القومية كلها . وجلبت ألمانيا ـ نظراً لقلة اليد العاملة والمواد الأولية تحت يدها ـ ١٢ مليون رجل وامرأة من كل بلاد أوربا لتشغيلهم فى تسليحها ، فزادت بذلك منتجاتها الاستبدالية (الكاوتشوك الصناعى ـ والبترول المركب من عناصر صناعية ونسيج الورق أو الزجاج . . . الخ) ونظمت توزيعا دقيقا صارما للمواد الغذائية كلها ، محاولة بذلك أن تقيم « أوربا الجديدة» التىلم تكن إلا مشروعا واسعا للاستعباد والنهب غايته أن يبقى على حياة آلة الحرب الألمانية .

وتسلطت مطالب الصناعات الحربية الكثيرة على السياسة ، وطغت على المواقع (الاستراتيجيا) . أما الحلفاء فكان ثمة روابط تبادل تقوم بينهم . ومع هذا الاختلاف فى الروابط ـ رأينا تسليم العتاد الانجلوسكسونى للروس (فيما بين اكتوبر ١٩٤١ ويناير ١٩٤٤ سلمت الولايات المتحدة إلى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الروسية ٧٨٠٠ طائرة و ٤٧٠٠ دبابه و ١٦٠ ألف عربة نقل (كاميون) و ٧٤٠ ألف طن بترول طيارات ، ١٫٣٥٠٫٠٠٠ طن صلب ، ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ طن إمدادات) . فبقانون « القرض الايجارى » كانت أمريكا بحق « مستودع تسليح الديمقراطيات » كما أن الروس من جانبهم قد أعادوا إنشاء صناعاتهم الثقيلة فيما وراء جبال الأورال خارج منطقة سلاح الطيران فانقلبت جغرافية الاتحادالسوفيتى بذلك رأسا على عقب . لقد أصبحت الحرب عملا صناعيا ضخما .

تغيرات الجيوش:

بدأ الصراع بانتصار الآلة (الموتور) . فاندفعت الدبابات الألمانية حتى بوردو يتبعها جيش كله محمول تقريبا . وأصبح هذا النجاح الألمانى موضع تقليد، وقلما كان المشاة يتنقلون على الأقدام . فلكى تجارى تقدم العربات الحربية كانت تحمل بكاملها على عربات نقل سيارات. وعلى سبيل الاستثناء فقط رأينا المشاة تقاتل فى الأجزاء الجبلية من إيطاليا والبلقان كما كانت تقاتل فى حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وكان على المدفعية أن تخضع لمقتضيات الحركة ذاتها ؛ فأصبح المدفع يتحرك أوتوماتيكيا . وكان استخدام الروس لهذا السلاح استخداما حاسما . ونظم الجنرال فورنوف جيوشا مستقلة كل منها فرقتان أو ثلاثة من هـذه الآلات ومن الدبابات والطائرات (من عشرين إلى ٢٥ لكل كتيبة) لتوجيه النيران عن طريق اللاسلكى ، وفى موقعة أوريل (يوليو ١٩٤٣) حقق الروس بهذه الطريقة تركيزات بارعة بلغت ألفاً وثمانمائة مدفع فى الكيلو متر الواحد . ومنذ ذلك الحين أصبحت كتلة الهجوم الموجهة إلى اختراق مواقع العدو تتكون فى أساسها من المصفحات والمدافع الأوتوماتيكية .

والتغيير الهام الثانى فى تركيب الجيوش هو الربط الوثيق أكثر فأكثر بين القوات البرية والجوية والبحرية . وارتباط الطيران بالمدفعيـــة . فلقد أدى القتـال فى الحقيقة سواء فى الجبهة الغربية أو فى الجبهة الشرقية إلى « معارك خاسمة » فيها ارتبطت المدفعية (بنظامها القديم) والطيران (الحديث) . إلا أنه إذا كان الطيران الآن يحاول التدمير ، فان السير فى النجاح إلى نهايته إنما يأتى من جانب الأسلحة المتحركة (الفرسان قديما) والآن العربات المصفحة . وهكذا شهدنا — فى نهاية حروب الغرب — تغيرا هاما.

العمل الجماعي لأسراب الطائرات (الطائرات التكتيكية والاستراتيجية) في مقدمة الفرق المقاتلة لكي تحصل على فائدة العدو . ففي حرب نورمانديا أمكن دخول كوتانس Coutances بعد « تمهيدات » جوية رهيبة قامت بها ٢٥ ألف قاذفة قنابل . ولقد أحرز الألمان انتصاراتهم الأولى في فرنسا بفرق الاشتوكاس Stukas التي تهاجم المشاة بالرعب . أما الروس فقد جعلوا من فرق الاسترموفكس Stormoviks المزودة بالقاذفات الصاروخية أسلحة ممتازة ضد الدبابات .

وتحقق ارتباط البر والجو فضلاً عن هذا بخلق سلاح جديد : هو ناقلات الجنود . وكانت قد تدبرت ذلك منذ ما قبل الحرب فرنسا التي كان لها فرقها من « مشاة الجو » ، ثم زاد هذا السلاح تنظيما على يد الألمان والروس . وأول هبوط ضخم لجنود المظلات هو الذي حدث في هولندا في مايو ١٩٤٠ والذي هيأ للألمان أن يستولوا على مطار روتردام منذ اليوم الأول . ولم تكن هذه إلا البداية ، فإن الانجلوسكسون الذين عرفوا « البراشوت » متأخرين قد أنشأوا فرقا جوية كان تجهيزها كله يتم بطريق الجو . وهي أول ما نزل من هذه الفرق في فرنسا : عبرت الرين ، ثم قامت بمعركة برمانى Birmanie وبحركات استراتيجية بذت حركات ماعداها من القوات كانت قادرة بشكل عجيب على القيام بحركات التكتيك الجانبي . كان استخدامها يقوم أساساً على سيطرتها الجوية وتغلبها التام على النقطة التي تهبط فيها جنودها بما يهيء لهم أن ينضموا سريعا إلى القوات البرية . كانت كريت من قبل هدفا لتجربة لم تتم . ولكن الهبوط في نورمانديا قد أظهر ميل الجانب الأمريكي إلى الاهتمام بهذه التشكيلات ، بينما حاول البريطانيون أن يقوموا بمثل ذلك . وسمحت نهاية الحرب بتحديد شروط استعمال هذا السلاح الجديد . فقد نجحت عملية نيميج Nimegue لأن الفرق التي تم نقلها بطريق

الجو قد انضمت إلى القوات البرية بعد أقل من ٢٤ ساعة من نزولها . وعلى العكس من هذا انتهت واقعة أرنهيم Arnhem نهاية محزنة لأن قوات المظلات التى أنزلت ظلت منعزلة أكثر من ثلاثة أيام .

وأخيرا فإن الطائرة تموّن الفرق المحصورة (كما حدث فى جيش فون باولوس Von Paulus فى لينتجراد) أو المصفحات التى تغامر بعيدا جدا عن مراكزها (ففى معركة ألمانيا الأخيرة نقلت طائرات الإمداد من طراز داكوتا البترول لمصفحات باتون Patton بما استطاعت معه أن تتقدم ٤٠٠ كيلو مترا فى ١٩ يوما) .

أما الاتصال بالبحريه فقد تجلى فى عملية مناورات النزول إلى نورمانديا وخصوصا فى عمليات المحيط الهادى المشتركة . واتحاد القوات الثلاث الوثيق هو الذى هيأ لماكآرثر أرضا ، ولنيمتز Nimitz بحرية - يزاولان عليها ، تكتيك قفزات البراغيث sauts de puce ، الذى كان لابد أن يؤدى بهما من غينا الجديدة إلى جزر أوكيناوا فى اليابان .

وتغيير ثالث رئيسى ، هو تطور التسليح(١) . فالمشاة تستبدل بالبندقية أو المدفع الخفيف الحمل الأسلحة الخفيفة الأوتوماتيكية : المسدس الرشاش ، والبنادق الرشاشة الصغيرة - التى أصبحت منذ ذلك اليوم تكفى وحدها فى المعارك القريبة . وزادت المدفعية من تحركاتها ، كما حسنت متفجراتها (بالعبوة المفرغة) . وقضت المصفحات على الفرسان الذين مازال الروس مع هذا يستخدمونهم (وفى معركة ستالنجراد كان القوزاق يقودون الدبابات ولكنهم كانوا يظهرون فى المعارك بأسلحة أكثر فأكثر كفاية : القذائف

---

(١) انظر الكولونيل آيريه Ailleret تاريخ التسليح فى مجموعة Que Sais Je

الصاروخية ، ويستعملون من أسلحة الألمان البانزفاوست Panzfaust ومن أسلحة الحلفاء البازوكا bazooka ، وبآلات دقيقة قاتلة ذات مسافات قصيرة . وقد وضعت فى خدمة الحرب كافة إمكانيات العلم الجديث : طريقة الرادار ، والصواريخ الموجهة باللاسلكى (V 1 ، V 2) ، والطائرات النفاثة . . الخ مما أعطى لجيوش الحرب العالمية الثانية طابعا فنيا بعيدا جدا . كما أن كثرة وسائل العمل ذاتها فى الوحدات قد صحبها نقص فى أرقام رجال كل منها . وهكذا كان الفريق السوفيتى من المشاةالقويةالذى تعداده فى ربيع ١٩٤١ — ١٣ ألف رجل لايتجاوز تسعة آلاف فى سنة ١٩٤٥.

وأخيرا فان إحدى المشكلات التى أثارتها الحرب العظمى قد وجدت هنا حلها ؛ ونعنى بهامشكلة القيادة(١). فالسلطةالعليا الآن تابعةلرؤساءالحكومات. فستالين وهتلر يحملان لقب القائد الأعظم généralissime . أما تشرشل وروزفلت فكانا كذلك قائدى القوات المسلحة . فهم الذين رسموا فى طهران ويالتا الخطوط العريضةللعمليات الحربية . والموقف منذ ذلك الحين واضح جدا .فبمقتضى الأحداث السياسية تتولىالسلطة المدنيةالتدبير الإستراتيجى (أى اختيار مواقع العمليات، والتصرف الراهن الذى يجب القيام به) . ومن ناحية أخرى يختص رئيس هيئة أركان الحرب بتدبير التكتيك الحربى (أى تنفيذ العمليات) فيوزع القوات على مختلف ميادين القتال حيث تكون السلطة لقوادالعموم ،كل فى القطاع الخاص به . لقدأصبحت الحرب خليطا عسكريا وسياسيا .

وفيما وراء هذه الثورة الفنية والاستراتيجية ثمة رباط يؤلف بين الحربين العالميتين، هو دائما هبوب «الشعوب المسلحة» كلها ولكن بمعنى أكثر فأكثر اتساعا وشمولا .

---

(١) انظر فى مجموعة Que Sais-je أيضا : تاريخ المواقع الحربية Histoire de la Stratégie للجنرال ريفير Génn. Revers

خاتمة

ها نحن قد أتينا على عرض لتاريخ الجيوش فى خطوطه العريضة .

هذا التاريخ الذى لا يمثل منحنى متسقا لتطور منتظم ، بل ضربا من الحركة التى تتذبذب بين نوعين نهائيين : الجيش الوطنى والجيش المحترف ، أو الجيش المقترع والجيش المرتزق . ومع هذا فلكل دولة تطورها الخاص بها ولعل بعضها أن يظفر فى هذا التطور بضع قرون كاليابان فى عهد موستو هيتو Mustu—Hito التى انتقلت فجأة من عصابات صموراى Samourai إلى جيوش وطنية قوية .

هل يلقى الماضى إذن بعض الضوء على المستقبل؟ إن الصراع الذى انتهى مع الحرب العالمية الثانية قد شهد بداية استخدام الطاقة الذرية وإن كانت النوايا الطيبة الكثيرة تود لو ترى فيه بداية عهد جديد فى تاريخ البشرية : إذ يبدو لأصحاب هذه النوايا أن حركات التسليح بل وصور الجيوش ذاتها الآن باطلة إطلاقا . هذا الرأى الذى تؤيده الكتل الشعبية التى أنهكتها الحرب قد يشهد باختياره نهاية الجيوش الكبيرة .

قد تقوم قوة الشعوب إذن فى معاملها القوية ، ومصانعها الجبارة ، حيث تطرق فى سرية تامة الأسلحه ذات الأثر العجيب ، وقد لا يكون للجيوش - إذا ما اقتصرت على عدد من الفرق المحترفة - إلا دور محصور : هو أن تنظم وجوه الصراع الجزئية وتقوم بالتجهيزات العلمية والصناعية .

وإذن فالمعامل والمصانع سوف تقوم فى الخلافات المستقبلة بدور جوهرى . ولا نظن من ناحية أخرى أن الجيوش بمعناها الحقيقى سوف تختفى هكذا ، إلا بمقدار ما استطاعت القذيفة والطائرة والمدفع الرشاش أن تلغى وجود الخنجر (الذى مايزال يستعمله الكوماندوز) .

ثم إن التوغل فى الدول ، وغزو القواعد ، واحتلال الأرض سوف تتطلب أيضا قوات كبيرة العدد وكثيرة العدد . كما أن تقدم طرق المواصلات وزيادة طاقة الأسلحة وقوتها من شأنهما أن يجعلا الدولة كلها أو الكوكب الأرضى كله ـ منذ اللحظات الأولى لوقوع اشتباك ـ تدخل فى ميدان المعركة . لم تعد الحرب حرب صفوف ، لا ولم تعد قاصرة على السطوح ذات المساحات من طول وعرض ؛ مادام أن الطيران وقد أنذر بالخطر من الجو قد جعل لهذا البعد الثالث (الارتفاع) أهمية لا تقل عن أهمية البعدين الآخرين فى « الجبهة » بمعناها القديم . فالعلم كله والصناعة كلها ، والرجال إلى جانبهم النساء ، يشتركون جميعاً فى البذل للحرب ورعاية الجيوش . والأفكار القديمة التقليدية عن طليعة الجيش ومؤخرة الجيش قد بدأت تفقد مدلولها كما أن التمييز بين المحاربين وغير المحاربين أصبح يدق إلى أبعد حد .

وفى هذا الإطار ، من الواضح أن جيش السلم هو جيش نظامه القرعة ، ومهمته المزدوجة هى ضمان السلم للبلاد وضمان التجنيد العسكرى للمواطنين جميعاً .

إلا أنه إذا كان الصراع كليا ، فإن عدد المحاربين بالمعنى الحقيقى سوف يقل . فالمحارب الحديث ـ شأنه شأن فارس العصور الوسطى ـ يجب أن يكون له مساعدون يخدمونه . والرجل الذى يعهد إليه بالقتال اليوم أو غداً يلزمه — مادام يقاتل فى جبهة طولها أحيانا آلاف الكيلو مترات —

عشرة أو مائة رجل وامرأة يقومون على رعايته وإمداده وطرق الأسلحة اللازمة له .

وعلى أى حال ، فان عهـد الصراعات المحلية يبدو أنه قد زال ، وأن صراعات المستقبل سوف تكون التحام مجموعات من الدول المسلحة المتماهدة.

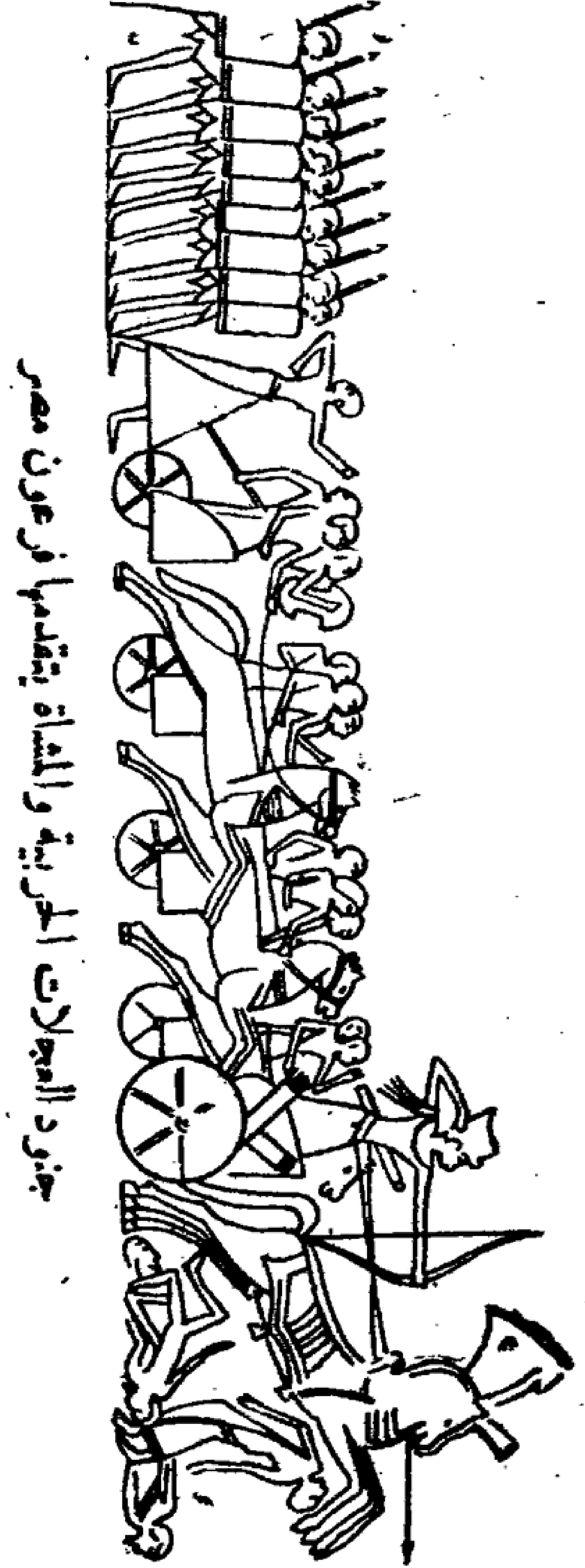
إن مصير الشعوب والحضارات يتقرر فى صراع القارات هـذا الذى يعبىء المشتركون فيه كافة وسائلهم المادية ويجنـدون له كل إمكانياتهم البشرية .

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الجيوش الملكية

من القرنين الثالث عشر إلى الثامن عشر



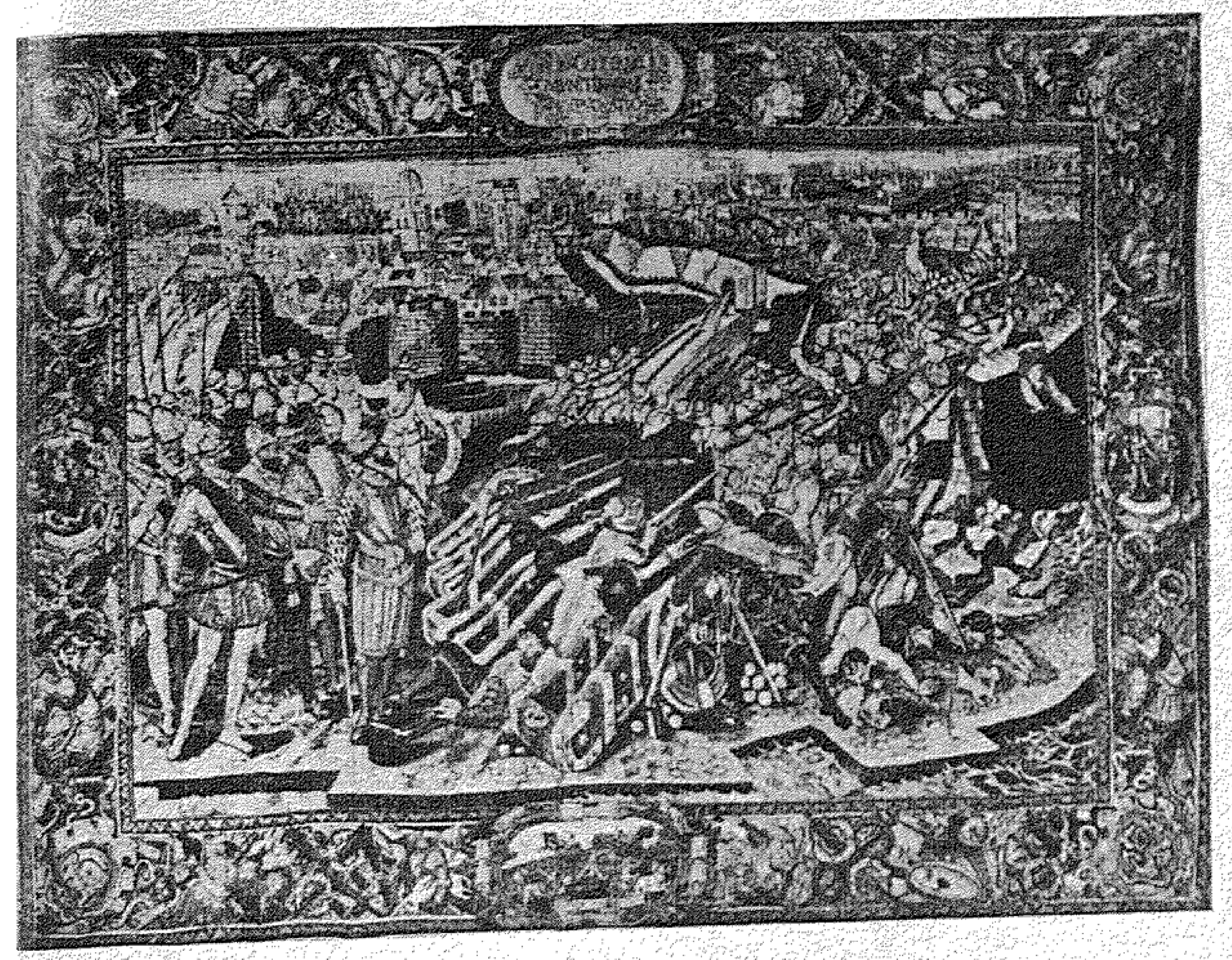
جنود العجلات الحربية والمشاة يتقدمها فرعون مصر



a monsigneur Iehan de hainau-
der lequel porta lors l'amble li tres
vaillans nules de nouens · et en
telle maniere cevauchierent li
batailles ordonnees par devers
leurs anemis

Chi commance la doloreuse desconfi
Comment li Rois de france se re
traist a amiens apres la bataille.
Li Rois edouars den
gleterre qui riens
ne savoit de la
venue du roy de
france avoit envoier hors
ture qui fu faite a le bataille de cressi et
monsigneur Renaut de combe
hanir son marissal pour cer
chier le pais et enquerre nou
velles de ses anemis · et tant
alla quil prinst · iiij · des cou
reurs du roy de france · les qlz
lui disent que li Rois de france

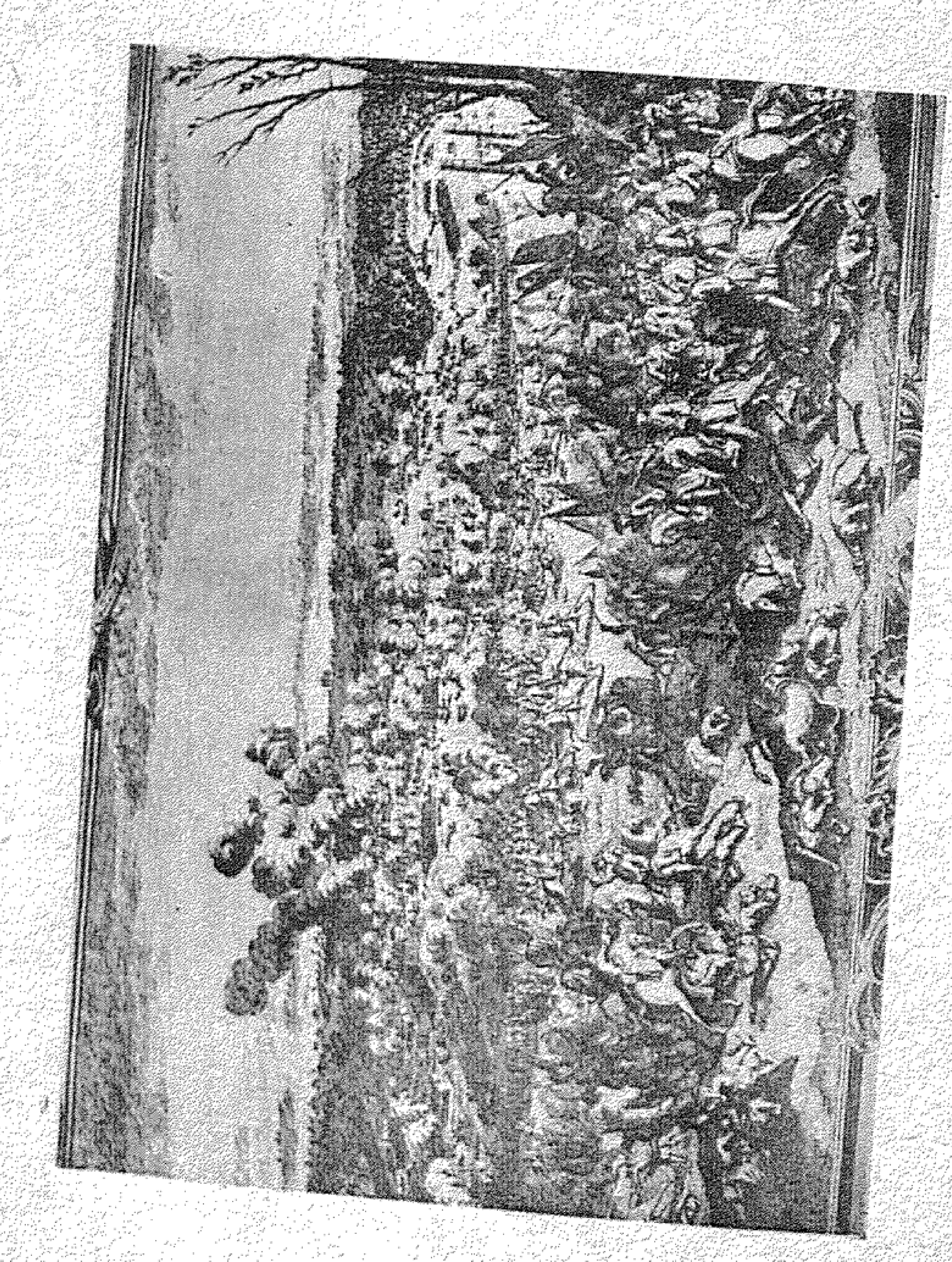
معركة كريسى (٢٦ أغسطس ١٣٤٦)



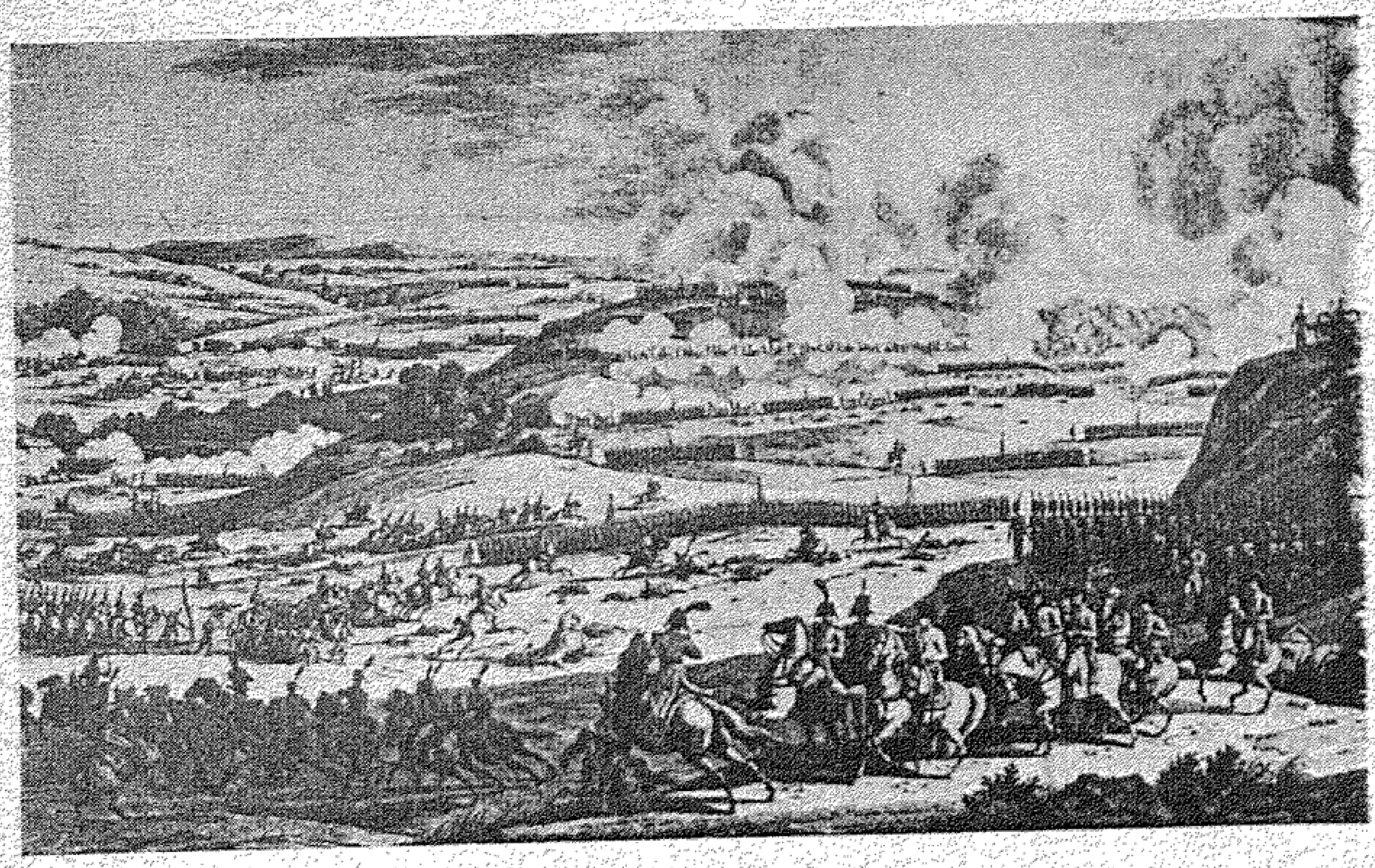
استيلاء الأرشيدوق ألبرت على كاليه (١٥٩٦)



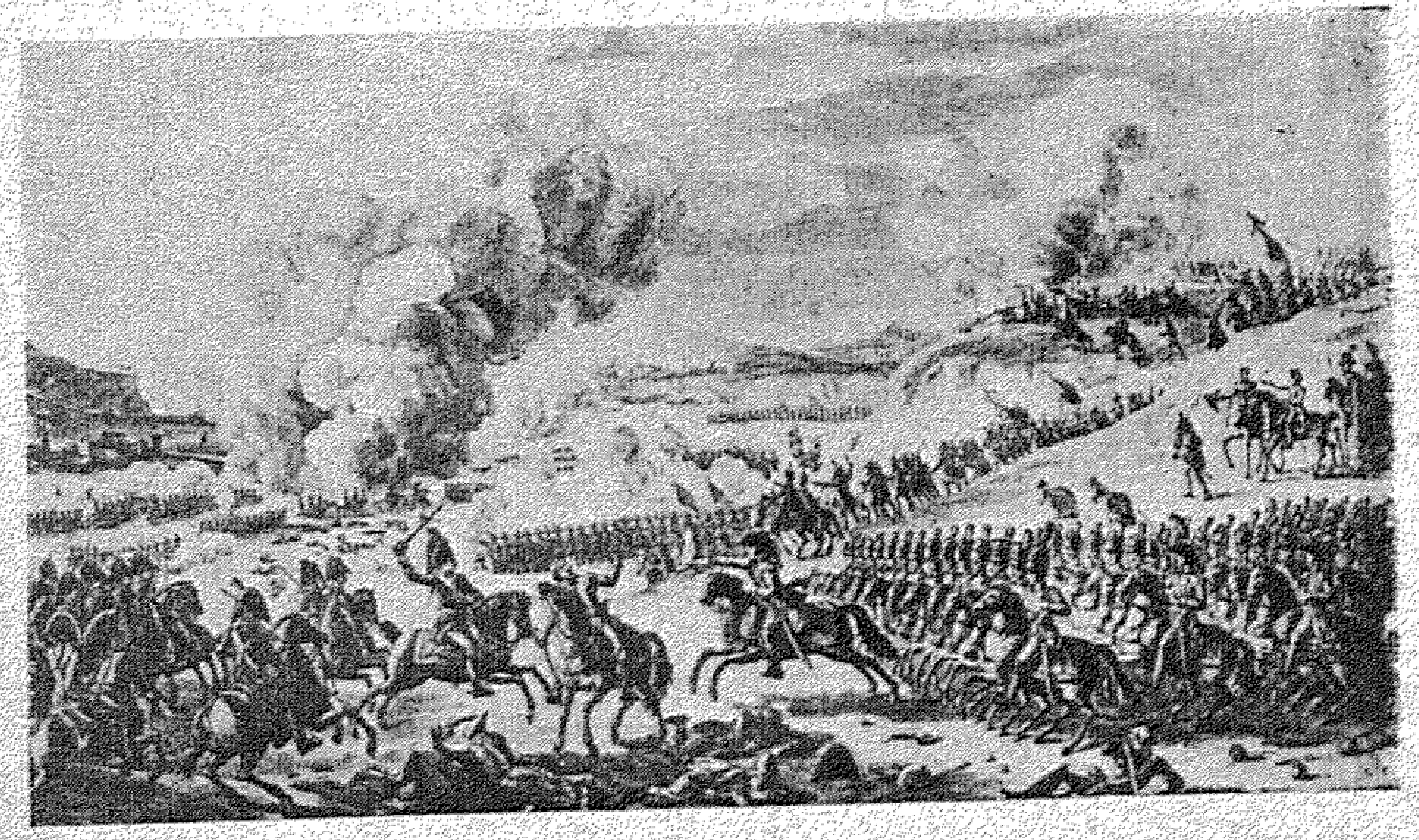
معركة ڤيلا ڤيكيوزيا (١٠ ديسمبر ١٧١٠)



معركة فونتنوى (١١ مايو ١٧٤٥) للرسام كوشان



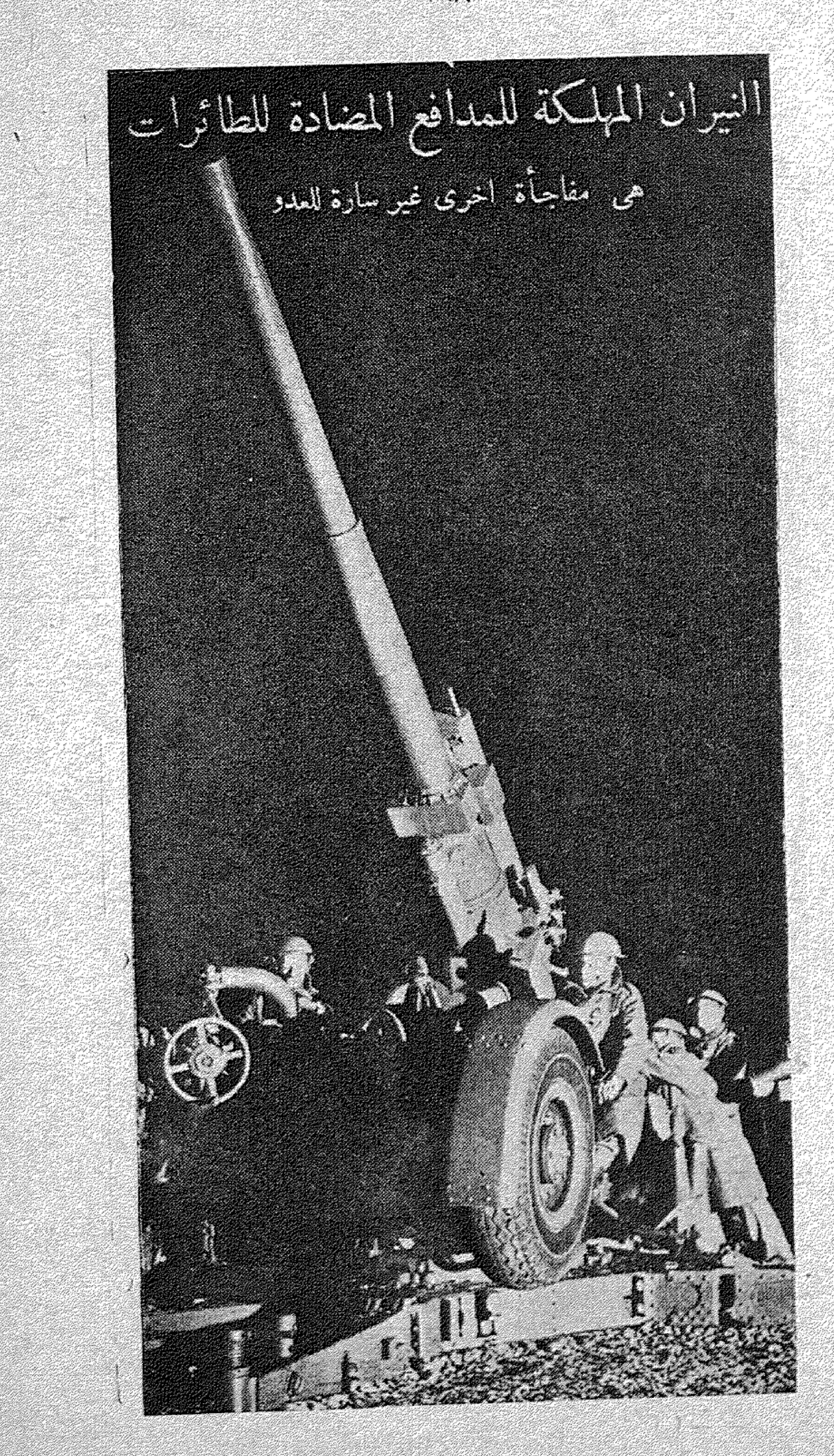
معركة يينا (١٤ أكتوبر ١٨٠٦)



الدور الأخير فى معركة يينا

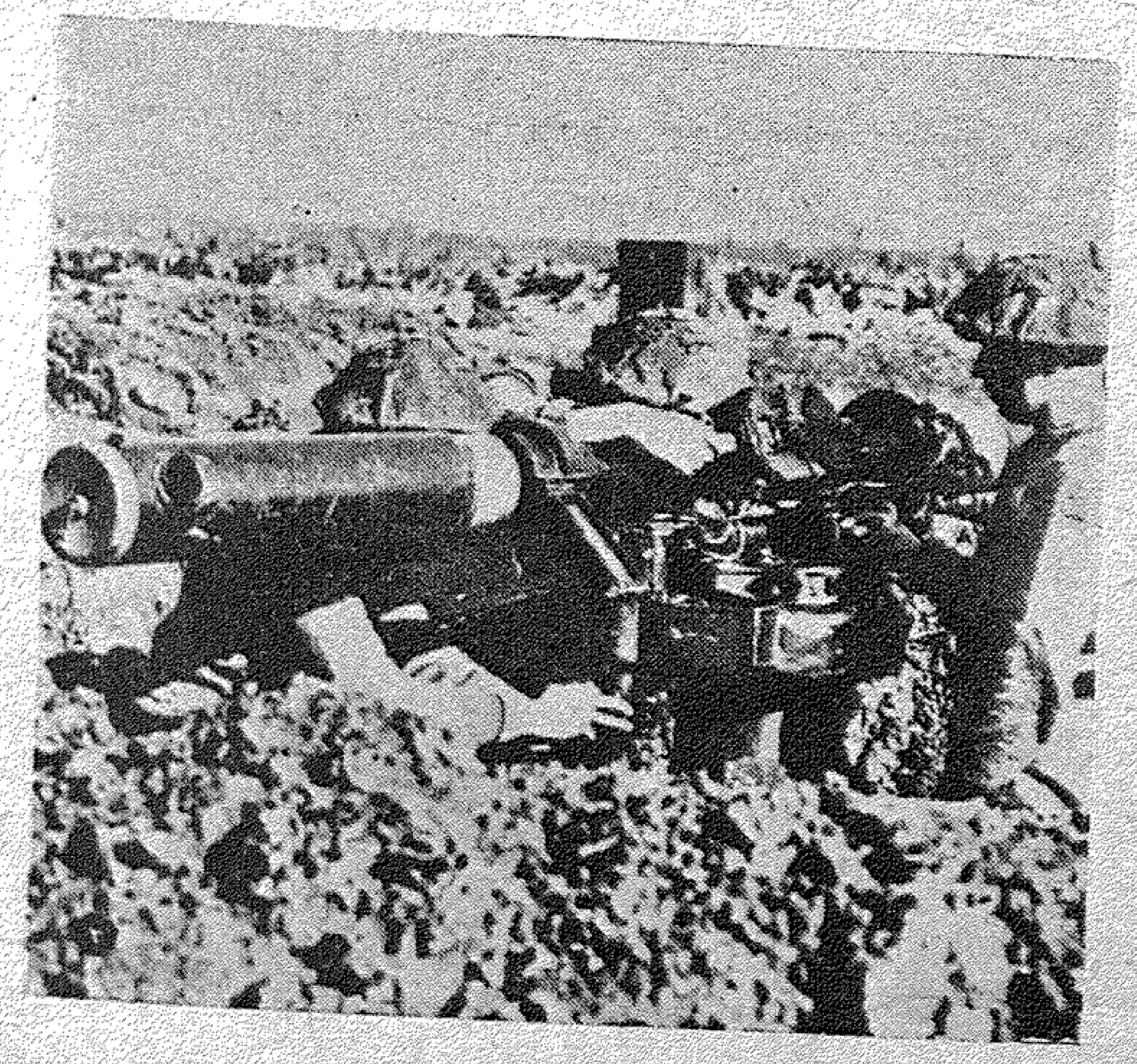


اقتحام الفرسان المدرعين فى معركة ريشهوفن (٦ أغسطس ١٨٧٠)


النيران المهلكة للمدافع المضادة للطائرات
هى مفاجأة اخرى غير سارة للعدو



طاقم الأنوار الكاشفة



آلة دقيقة لتقدير مواقع الطائرات

جنود اللاسلكى فى الميدان



جند المظلات يستعدون لركوب الطائرات



جند المظلات أثناء الهبوط



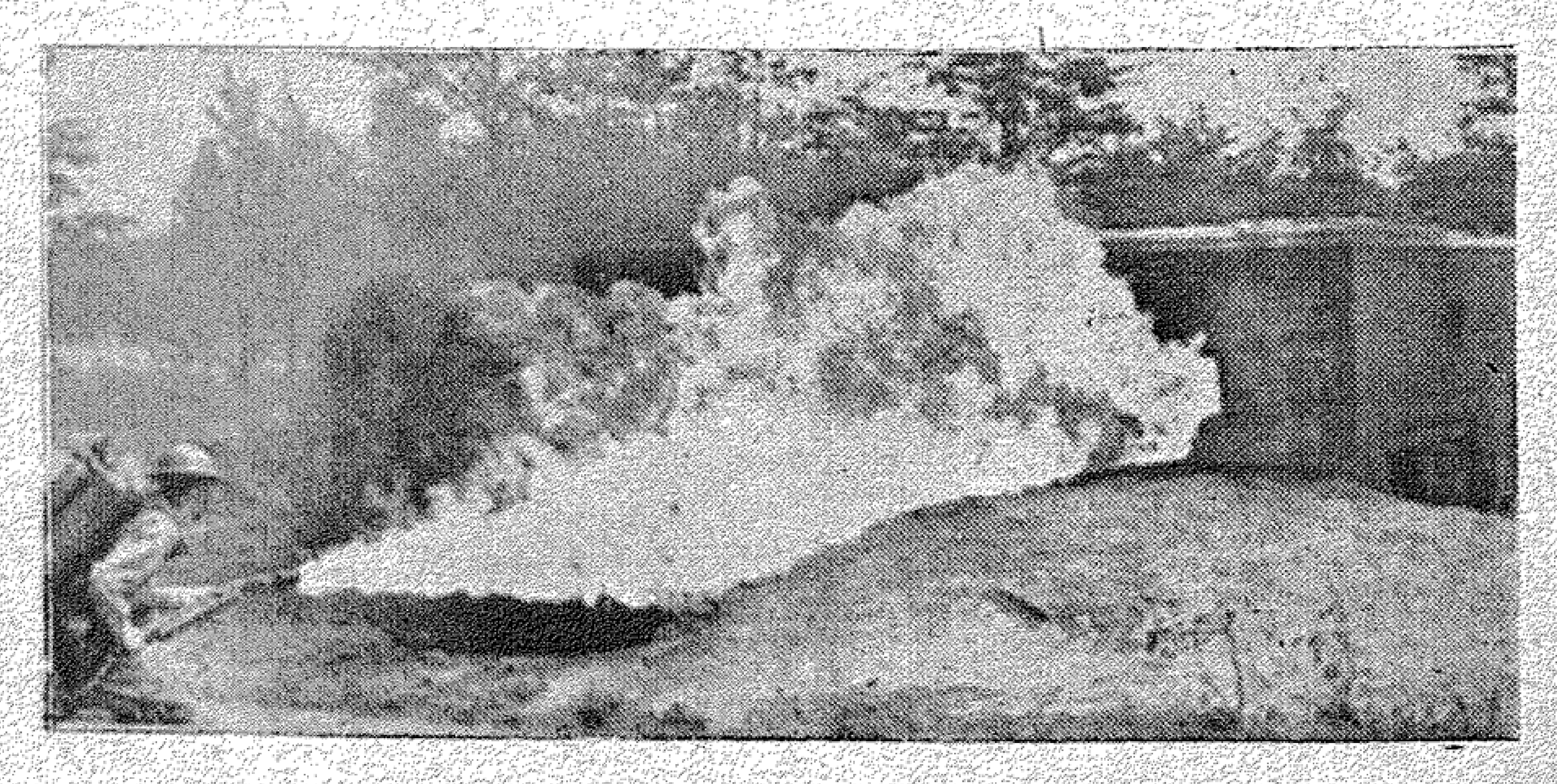
جماعة من راكبي الدراجات البخارية



تدريب الجنود على التغلب ضد الموانع

تدريب الجنود على مد خطوط الطرق الحديدية

سيارة مدرعة تعبر كوبرى من صنع سلاح المهندسين



جندى يطهر وكراً للعدو بقاذفة اللهب

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة إليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضاً سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل إليه العلم فى تلك الموضوعات .
* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الإمكان ، وإشراك أكبر عدد من الناشرين فى نشرها .
* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .
* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
* الإفادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء فى شتى الأمم ، بإتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم .
* إفساح المجال أمام الشباب الطامح إلى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة إيجابية فى النهضة العلمية والأدبية .
* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الإقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضاً مجزياً .
* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل إليه العلم والمعرفة .

